بكر بن عبد الله أبو زيد

تَصْنِيفُ النَّاسِ بَيْنَ الظَّنَّ وَ الْيَقِينِ

قال الله تعالى :

(إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما
ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند
الله عظيم) .

[النور / 15]

دار العاصمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين : اللهم إيـاك نعبد , وإيـاك نسـتعين , وعليك نتوكل , وإليك نسـعى ونحفد . ونصـلي , ونسـلم على خـاتم أنبيائك ورسلك .

أما بعد :

فأنتخب من مزدحم الحياة : العلماء الهداة في مثالهم : العالم العامل بعلمه في خاصة نفسه , ونصـحه لله , ولرسـوله , ولإمامه , ولعمـوم أهل الإسلام , فما أن يـذكر اسم ذلك العـالم إلا ويرفع في العلمـاء العـاملين , فعلمه وعمله متلازمـان أبـدا , كالشـاخص والظل سواء , والله يمن على من يشاء .

فأنتصر له حسبة لله , لا دفاعا عن شخصه فحسب , بل وعن حرمـات

علمـــاء المســـلمين ومنهم دعـــاتهم , ورجـال الحسـبة فيهم ؛ إذ بـدا لقـاء ما يحملونه من الهدى والخير والبيان : اختراق:((ظاهرة التجريح)) لأعراضـهم بالوقيعة فيهم, وفـــري الجـــراحين في أعراضــهم ,وفي دعــوتهم ,ولما صــنعه (سعادة الفتنة) من وقائع الافتراء, وإلصـــاق التهم,وألـــوان الأذى, ورمي الفتيل هنا وهنـاك , مما لا يخفي في كل مكان وصلته أصواتهم البغيضة .

ولعظم الجناية على العلماء , صار من المعقـــود في أصـــول الاعتقـــاد : ((ومن ذكـــرهم بســـوء فهو على غـــير سبيل)) .

وعلى نحوه كلمات حسان لعدد من علماء الأمة الهداة في العلم والدين[1] .

لــذلك , ولما لهم على العامة والخاصة من فضل في تعليم الناس الخــير , ونشر الســنن , وإماتة الأهــواء والبـدع , فهم قد أوتـوا الحكمة يقضـون بها , ويعلمونها الناس , ولم يتخلفوا في كهـــوف ((القعـــدة)) الـــذين صـــرفوا وجـــوههم عن آلام أمتهم وقـــالوا((هـــذا

مغتسل بــارد وشــراب)),وكأنما عنــاهم شوقي بقوله:

وقد يموت كثيرا لا تحسهم
كأنهم من هوان
الخطب ما وجدوا

بل نزلوا ميدان الكفاح , وسـاحة التبصير بالـدين , وهم الـذين يُنبـؤن عن مقيــــــاس العظمة ((العصـــــــامية)) التاريخية في أشـــباحهم المغمـــورة , لا العظمة ((العظامية)) الموهومة , كما لبعض أصــحاب الــرتب , والشـــارات , المفرغين لأنفسهم عن

قرن العلم بالعمل .

* إن القيم , والأقــدار , وآثارها الحسان , الممتدة على مسارب الــزمن لا تقــوم بالجــاه , والمنصب , والمــال , والشــهرة , وكيل المــدائح , والألقــاب , وإنما قوامها وتقويمها بالفضل , والجهاد , وربط العلم بالعمل , مع نبل نفس , وأدب جم , وحسن ســـمت , فهـــذه ,

وأمثالها هي الـــتي تـــوزن بها الرجـــال والأعمال .

وإلى هذا الطراز المبارك تشخص أبصار العالم , ولكل نبأ مستقر .

لهذا كله , صار من الواجب على إخـــــوانهم , الـــــذب عن حرمـــــاتهم وأعراضهم بكلمات تجلو صدأ ما ألصـقه (المنشـــقون) بهم من الـــثرثرة , وتكتم صدى صياحهم في وجه الحق .

وإيضـاح السـبيل الآمن الرشد , العـدل الوسط .

فالآن علينا البيان بألفاظ مقدودة على قدودها بلا طول , ولا قصر , وعلينا وعليك الإنصاف بلا وكس ولا شطط .

فها أنا[2] أقول عن هذه الظاهرة ((تصنيف الناس)) في

واقعهـــا, وطرقهـــا, ودوافعهـــا, وآثارهـــا, وسبل علاجها, والقضاء عليها بما لاح لي :

* إن كشف الأهواء , والبدع المضلة , ونقد المقـــالات المخالفة للكتـــاب ,

والسنة , وتعرية الدعاة إليها , وهجرهم وتحذير الناس منهم , وإقصائهم , والبراءة من فعلاتهم , سنة ماضية في تاريخ المسلمين في إطار أهل السنة , معتمدين شرطي النقد : العلم , وسلامة القصد .

* العلم بثبوت البينة الشرعية , والأدلة اليقينية على المدعى به في مواجهة أهل الهوى والبدعة , ودعاة الضلالة والفتنة , وإلا كان الناقد ممن يقفو ما ليس له به علم . وهذا عين البهت والإثم .

* ويرون بالاتفاق أن هذا الواجب من تمام النصح لله ولرسوله - ﷺ- ولأئمة المسلمين , وعامتهم . وهذا شرط القصد لوجه الله تعالى , وغلا كان الناقد بمنزلة من يقاتل حمية ورياء . وهو من مدرك الشرك في القصد .

وهذا من الوضوح بمكان مكين لمن نظر في نصوص الوحيين الشريفين , وسبر الأئمة الهداة في العلم والدين .

وفادة التصنيف

* ولا يلتبس هذا الأصل الإسلامي بما تـــراه مع بلج الصـــبح , وفي غسق الليل من ظهور ضـمير أسـود, وافد من كل فج استبعد نفوسا بضراوة , أراه : " تصنيف الناس " وظـاهرة عجيب نفوذها هي : " رمز الجـــراحين " أو :" مـــرض التشكيك وعدم الثقة " حمله فئام غلاظ من النـاس يعبـدون الله على حـرف , فألقوا جلباب الحياء , وشـغلوا به أغـرار التبس عليهم الأمر فضـــلوا , وأضـــلوا , فلبس الجميع أثـواب الجـرح والتعـديل, وتـــدثروا بشـــهوة التجـــريح , ونسج الأحـــاديث , والتعلق بخيـــوط الأوهــام , فبهـــذه الوســائل ركبـــوا ثبج التصـــنيف للآخـرين ؛ للتشـهير , والتنفـير , والصد عن سواء السبيل .

ومن هذا المنطلق الواهي , غمسوا ألسنتهم في ركام من الأوهـام والآثـام , ثم بسـطوها بإصـدار الأحكـام عليهم , والتشـكيك فيهم , وخدشـهم , وإلصـاق التهم بهم , وطمس محاســـــــــنهم , والتشهير بهم , وتوزيعهم أشتاتا وعـزين :

في عقائدهم , وسلوكهم , ودواخل أعمـالهم , وخلجـات قلـوبهم , وتفسـير مقاصـــــدهم , ونيـــــاتهم ... كل ذلك وأضـعاف ذلك مما هنالك من الـويلات , يجري على طرفي, التصنيف : الــديني , واللاديني .

فترى وتسمع رمي ذاك , أو هذا بأنه : خارجي. معـتزلي. أشـعري . طـرقي . إخــــــواني . تبليغي . مقلد متعصب . متطرف . متزمت . رجعي . أصولي .

وفي السلوك : مداهن . مراء . من علمـاء السـلطان . من علمـاء الوضـوء والغسل .

ومن طـرف لا ديـني : ماسـوني . علماني . شـيوعي . اشـتراكي . بعـثي . قومي . عميل .

* وإن نقبوا في البلاد , وفتشوا عنه العبـاد , ولم يجـدوا عليه أي عــثرة , أو زلة , تصـيدوا له العـثرات , وأوجـدوا له الزلات , مبينة على شبه واهية , وألفاظ محتملة .

* أما إن أفلست جهودهم من كل هـذا رمـوه بـالأخرى فقـالوا : متسـتر . محايد .

إلى غير ذلك من ضروب تطاول سعاة الفتنة والتفـرق , وتمزيق الشـمل والتقطع .

* وقد جـرت هـذه الظـاهرة إلى الهلكة في ظـــاهرة أخـــرى من كـــثرة التسـاؤلات المتجنيـة-مع بسـمة خبيثـة- عن فلان, وعلان, والإيغال بالـدخول في نيته , وقصده , فإذا رأوا ((شـيخا)) ثـنى ركبتيه للــــدرس, ولم يجــــدوا عليه أي ملحـظ, دخلـوا في نيتـه, وكيفـوا حاله : ليبني نفسه , لسان حاله يقـول : أنا ابن من فاعرفوني . ليتقمص شخصية الكبار . يترصد الزعامة .

* وإن ترفقوا , وغلبهم الورع , قالوا : محترف بالعلم .

* وإن تورع ((الجراح)) عن الجرح بالعبارة, أو استنفدها, أو أراد ما هو أكثر إيغــالا بــالجرح , ســلك طريق الجــرح بالإشـارة , أو الحركة بما يكـون أخبث , وأكثر إقذاعا .

مثل : تحريك الرأس , وتعويج الفم , وصـــرفه , والتفاته , وتحميض الوجه , وتجعيد الجبين , وتكليح الوجه , والتغــير , والتضجر .

أو يسأل عنه , فيشير إلى فمه , أو لسانه معبرا عن أنه : كذاب , أو بذيء .
ومثل : تقليب اليد , أو نفضها .
إلى غير ذلك من أساليب التوهين بالإشارة, أو التحريك.
ألا شلت تلك اليمين عند الحركة التوهين ظلما .
وصدعت تلك الجبين عن تجعيدها للتوهين ظلما .
ويا ليت بنسعة من جلد,تربط بها تلك الشفة عند تعويجها للتوهين ظلما.
ولله در أبي العباس النميري , شيخ الإسلام ابن تيمية

- رحمه الله تعالى - إذ وضع النصال على النصال في كشف مكنونات تصرفات الجراحين ظلما فقال[3] :
(فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون لكن يرى انه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه فيرى موافقتهم

من حسن المعاشــرة وطيب المصــاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضــبهم فيخــوض معهم .

ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شــتى تــارة في قــالب ديانة وصــلاح فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحـدا إلا بخـــير، ولا أحب الغيبة ولا الكـــذب وإنما أخــبركم بأحواله . ويقــول: والله إنه مســكين أو رجل جيد ولكن فيه كيت وكيت . وربما يقـــــول : دعونا منه الله يغفر لنا وله وإنما قصــــدهم استنقاصه وهضــما لجنابه . ويخرجــون الغيبة في قوالب صلاح وديانة يخادعون الله بــذلك كما يخــــادعون مخلوقا وقد رأينا منهم ألوانا كثيرة من هذا وأشباهه .

ومنهم من يرفع غـيره ريـاء فـيرفع نفسه , فيقول : لو دعوت البارحة في صــلاتي لفلان لما بلغي عنه كيت وكيت , لــيرفع نفسه ويضــعه عند من يعتقده . أو يقول : فلان بليد الــذهن قليل الفهم وقصـده مـدح نفسه وإثبـات معرفته وأنه أفضل منه .

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمـــرين قـــبيحين : الغيبة ،

والحسد . وإذا أثـنى على شـخص أزال ذلك عنه بما اسـتطاع من تنقصه في قـالب دين وصـلاح ، أوفي قـالب حسد وفجور وقدح ، ليسقط ذلك عنه .

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسـخر ولعب ليضـحك غـيره باسـتهزائه ومحاكاته واستصـغار المستهزأ به .

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب ،فيقـول تعجبت من فلان كيف لايفعل كيت وكيت؟ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت , وكيف فعل كيت وكيت فيخرج اسمه في معرض تعجبه .

ومنهم من يخرج الاغتمـام , فيقـول مسكين فلان ، غمني ما جرى له وما تم له فيظن من يسـمعه أنه يغتم له ويتأسف , وقلبه منطو على تشـفي به ولو قـدر لـزاد على ما به ولربما يـذكره عنه أعدائه ليتشفى به . هذا وغـيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعـات لله ولخلقه.

ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكـار منكـر، فيظهر في هـذا

الباب أشياء من زخارف القـول وقصـده غير ما أظهر والله المستعان) انتهى .

* ومن ألأم المسالك ما تسرب إلى بعض ديـــار الإســـلام من بلاد الكفر من نصب مشـانق التجـريح للشـخص الـذي يـراد تحطيمه والإحبـاط بما يلـوث وجه كرامته .

ويجري ذلك بواسطة سفيه يسافه عن غـــيره متلاعب بدينه قاعد مَزْجَـــرَ الكلب النـابح سـافل في خلقه ممسـوخ الخــاطر صـفيق الوجه مغبـون في أدبه وخلقه ودينه .

* بل ربما سلكوا شأن أهل الأهـواء كما يكشـــــفهم ابن القيم - رحمه الله تعالى - إذ يقول[4] :

(وانظر سرعة المستجيبين لدعاة الرافضة , والقرامطة الباطنية , والجهمية , والمعتزلة , وإكـــــــرامهم لـدعاتهم وبـذل أمـوالهم وطـاعتهم لهم من غـير برهـان أتـوهم به أو آية أروهم إياها غـــــير أنهم دعـــــوهم إلى تأويل تسـتغربه النفـوس وتسـتطرفه العقـول وأوهموهم أنه من وظيفة الخاصة الذين

ارتفعـــوا به عن طبقة العامة فالصـــائر إليه معدود في الخواص مفارق للعوام ,

فلم تر شـــيئا من المـــذاهب الباطلة , والآراء الفاسـدة , المسـتخرجة بالتأويل قوبل الـــــــــداعي إليه الآتي به , أولا بالتكــذيب له , والــرد عليه , بل تـــرى المخـــدوعين المغـــرورين يجفلـــون إليه إجفالا ويـأتون إليه أرسـالا , تـؤزهم إليه شـياطينهم ونفـوهم أزا , وتـزعجهم إليه إزعاجا فيـدخلون فيه أفواجا , يتهـافتون فيه تهافت الفراش في النـار ، ويثوبـون إليه مثابة الطـــير إلى الأوكـــار، ثم من عظيم آفاتـــــه, ســــــهولة الأمر على المتـــأولين في نقل المـــدعوين عن مذاهبهم , وقبيح اعتقـادهم إليهم, ونسخ الهـــدى من صـــدورهم , فـــإنهم ربما اختـــاروا للـــدعوة إليه رجلا مشـــهورا بالديانة والصـــــيانة , معروفا بالأمانة , حسن الأخلاق, جميل الهيئة , فصـــــيح اللسان , صبورا على التقشف , والتزهد , مرتاضا لمخاطبة النـــاس على اختلاف طبقـــاتهم , ويتهيأ لهم مع ذلك من عيب أهل الحق والطعن عليهم والإزراء بهم

ما يظفر به المفتش عن العيـــــــوب , فيقولـون للمغـرور المخـدوع :وازن بين هؤلاء وهـؤلاء, وحكم عقلـك, وانظر إلى نتيجة الحق والباطـــل, فيتهيأ لهم بهـــذا الخداع ما لا يتهيأ بـالجيوش وما لا يطمع في الوصـــول إليه بـــدون تلك الجهة) انتهى .

* وأما وقيعة الفُسَّاقِ في أهل الفضل والدين , فعلى شبه ممن قال الله فيهم :

{ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينـات تعـرف في وجوه الـذين كفـروا المنكر يكـادون يســطون بالــذين يتلــون عليهم آياتنا .. }الآية [الحج : 72] .

واستخفاف هؤلاء بالدين يحملهم على إشاعة أشياء عن العلماء , والدعاة منهم , ورجــــال الحســـبة فيهم بقصد الشناعة عليهم .

* ويشبه الجميع في قصد التشنيع : أهل الأهواء على اختلاف فرقهم , وتنوع مشــاربهم , واختلاف مدارســهم , فــإن لهم شـــــهوة جامحة بالوقيعة في أهل السنة , وعلماء الأمة .

* وإذا كانت هذه شناعات في مقام التجـريح , فيقابلها على ألسـنة شـقية : مقام الإطراء الكاذب , برفع أناس فـوق منزلتهم , وتعـديل المجـروحين , والصد عن فعلاتهم , وإن فعل الواحد منهم فعل .

وإذا كانت : ((ظاهرة التجـريح)) وقيعة بغير حق , فإن ((منح الامتيـاز)) بغـــــــير حق , يفسد الأخلاق , ويجلب الغرور والاستعلاء , ويغر الجـاهلين بمن يضرهم في دينهم ودنياهم . ولهـذا تـرى العقلاء يـــأنفون من هـــذه الامتيـــازات السخيفة

وتأبى نفوسهم من هـذه اللوثة الأعجمية الوافدة[5] .

وهذه أحرف نعترضة ثم أقول :

* وهكذا في سيل متدفق سـيال على ألسـنة كالسـياط , دأبها الـتربص , فـالتوثب على الأعـراض , والتمضـمض بـــالاعتراض , مما يوسع جـــراح الأمة , ويلغي الثقة في علمـــاء الملة , ويغتـــال الفضل بين أفرادها , ويقطع أرحامها تأسيسا على خيـــوط من الأوهـــام , ومنازلات بلا برهان , تجر إلى فتن تــدق

الأبواب , وتضـرب الثقة في قـوام الأمة من خيار العباد .

فبئس المنتجع , وبئست الهواية , ويا ويحهم يوم تبلى السرائر يوم القيامة .

****

واجب دفعها

والقسمة كما ترى : واحد ظـالم لنفسه مـــبين , وآخر مظلــــوم . ومن قواعد الملة : ((نصر المســـلم أخـــاه المســــــلم ظالما أو مظلوما)) لا على مقصد أول من تكلم بها : جنـــــدب بن العنـــــــبر , إذ أراد بها حمية الجاهلية , ولكن على مقصد النـــبي - صـــلى الله عليه وسـلم - إذ أخذ - صـلى الله عليه وســلم - الصـــورة , ونقلها إلى معــنى شريف بمعنى :

نصرته ظالما , بالأخذ على يده , وإبداء النصح له , وإرشاده وتخليصه من بنـاء الأحكـام على الظنـون والأوهـام , وإعمـــال اليقين مكـــان الظن , والبينة محل الوسوسة , والصـمت عن القـذف بالباطل والإثم , ومبدأ حسن النية , بدل سوء الظن والطوية , وتحذيره من نقمة الله وسخطه .

ونصرته مظلوما , بردع الظالم عنه , والإنصـاف له منه , والـدفع عن عرضه وكرامته , وتسليته , وتذكيره , بماله من الأجر الجزيل , والثـواب العـريض , وأن الله ناصره - بمشيئته - ولو بعد حين .

وهـذه النصـرة لهما من محاسن الإسلام , وأبواب الجهاد , وتعلن النذارة لـذوي النفـوس الشـريرة ملة الشـقاق والشغب أن على الدرب رجالا بالمرصاد , على حد قول الله تعالى :

{ فشرد بهم من خلفه لعلهم يذكرون } [الأنفال : 57] .

فتنقمع نفوسهم وهم يسفون الملل , وينطوي عن الساحة الشقاق والشغب , وتلقين الناس السؤال عن فلان وعلان , وما يجره من تعب من غير أرب .

لهذا جرى القلم في عـرض ما هو كـائن في معيـــار الشـــرع المطهر , عسى أن يكون وسـيلة إنقـاذ لمن أضـناه مشـوار التجريح

والتصـــنيف , فيلقي عصا التســـيار قبل الممات .

وسلوة لمظلوم مضرج برماح الجراحين , فتكشف الضر , وتبعد السوء .
وتحذيرا لكل عبد مسلم , من سبيل من احاطت به خطيئته .
وعسى أن يكون في هذه الأوراق تطهير لجماعة المسلمين من هذه الرواسب , وأمن من هذه المخاوف , ونرفع بها الغطاء عن هذه المحنة الدفينة ؛ لإطفاء جذوتها وكتم حملتها , خشية أن تعمل عملها فتفرق كلمة المسلمين , وتوجد الفروق بينهم , فيتخطفهم الناس , ويبقى صوت الحق ضئيلا , وحامله ضعيفا .
ومع هذا فلن تراها سجلا للحوادث والواقعات المرة , فهي كثيرة , وصاحبها حامل لمسؤليتها { فكلا أخذنا بذنبه} من"الآية : 40 العنكبوت". لكنها أحرف جريئة في ورقات قليلة , تقرع جرس النذارة من هذه المكيدة: (تصنيف الناس) اعتداء و((تجريحهم)) بغيا وعدوانا , فتكشف هذه الظاهرة بجلاء , وتواجه وجوه الذين يتعاملون معها بنصوص واضحة , وقوارع من

نصـوص الوحـيين ظـاهرة , فـإلى فاتحة البيان لها :

* إن جارحة اللسان الناطق بالكلام المتواطأ عليه , أســـاس في الحيـــاة والتعـــايش دينا ودنيا , فبكلمة التوحيد يدخل المرء في ملة الإسلام , وبنقضـها يخــرج منها , وبين ذلك مراحل انتظمت أبـــواب الشـــريعة , فلو نظـــرت إلى ((الكلام)) وما بـــني عليه من أحكـــام لوجـدت من ذلك عجبا في : الطهـارة , والصـلوات , وسـائر أركـان الإسـلام , والجهاد , و البيوع , والنكـاح , والطلاق , والجنايات , والحدود , والقضاء , ...

بل أفردت أبواب في الفقهيات كلها لما تلفظ به هذه الأداة : ((اللسان)) :

في أبـواب : القـذف , والـردة , والأيمـــان , والنـــذور , والشـــهادات , والإقرار .

وفي اصل الأصول : ((التوحيد)) يدور عليه البحث والتأليف .

فكم من كلام أوجب ردة فقتلا, أو واجب قذفا فجلدا, أو أوجب كفـارات أو نزعت بسببه حقوق فـردت مظـالم إلى أهلها . أو إقــرار أوجب بمفــرده حكما ,

ولذا قـالوا : ((إقـرار المـرء على نفسه أقوى البينات)) .
وهكـــذا من منـــاهج الشـــريعة المباركة الغراء ؛ ولهذا تكاثرت
نصـوص الوحـيين الشـريفين في تعظيم شـــأن الســـان ترغيبا وترهيبا , وأفـــرد العلمـــــاء في جمع غفـــير من مفرداته المؤلفـات ففي الـترغيب : الـدعوة إلى الله على بصـيرة , ونشر العلم بالـدرس , وفضل الصدق , وكلمة الحق ...
وفي الــترهيب : عن الغيبة , والنميمة , والكــذب , وآفــات اللســان الأخرى .
وقد جمعت في ذلك ((معجم المنــاهي اللفظية)) وبســطت أصــوله الشرعية في مقدمته .
* وإذا علمت أن النبي -صلى الله عليه وسـلم- قـال فيما صح عنه :" من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه : أضــــــمن له الجنـــــــة".علمت أن هـــذه((الضـــمانة))لا تلعق إلا على أمر عظيم .
وهذه بمؤداها ((رقابة شرعية)) على حفظ أعـــراض المســـلمين وكف

الأذى عنهم في ((العـــرض , والـــدين , والنسب , والمال , والبدن , والعقل)) .
ولما جمع الله شـمل المسـلمين أعلنها النـــبي - ﷺ- في حجة الــــوداع , فقــــــال - ﷺ- في خطبته الجامعة على مســــــمع يزيد عن مائة ألف نفس من المسلمين :
" إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حــرام عليكم كحرمة يــومكم هــذا في شهركم هذا في بلدكم هـذا ألا هل بلغت " .

طرق التصنيف

وإذا علمت فُشُوَّ ظاهرة التصنيف الغلابة ,وإن إطفاءها واجب , فـاعلم أن المحــترفين لها سـلكوا لتنفيــذها طرقا منها :
* أنك ترى الجراح القصاب , كلما مر على ملأ من الــــدعاة اختـــار منهم ((ذبيحا)) فرماه بقذيفة من هذه الألقاب المرة,تمرق من فمه مروق السـهم من الرميــة,ثم يرميه في الطريــق, ويقـول: أميطوا الأذى عن الطريق,فـإن ذلك من شعب الأيمان؟؟؟

* وترى دأبه التربص,والترصد:عين للـــترقب وأذن للتجســـس,كل هـــذا للتحريش,وإشعال نـار الفتن بالصـالحين وغيرهم .
* وتـرى هـذا ((الرمز البغيض)) مهموما بمحاضــرة الــدعاة بسلســلة طويل ذرعها,رديء متنها, تجر أثقـالا من الألقـــاب المنفـــرة, والتهم الفـــاجرة ,ليســـلكهم في قطـــار أهل الأهـــواء، وضلال أهل القبلة, وجعلهم وقود بلبلة , وحطب اضـــطراب وبالجملة فهـــذا ((القطيع)) هم أسوأ ((غزاة الأعراض بالأمراض)) والعض بالباطل في غوارب العبـــاد , والتفكه بها , فهم مقربـــون بأصـــفاد : الغل , والبغضـــاء , والحسد , والغيبة , والنميمة , والكــذب , والبهت , والإفك , والهمز , واللمز , جميعها في نفاذ واحد .

إنهم بحق : ((رمز الإرادة السيئة)) يرتعون فيها بشهوة جامحة .

نعوذ بالله من حالهم , لا رعوا .

آثارها

* فيا لله كم لهـذه : ((الوظيفة الإبليســية)) من آثـــار موجعة للجـــراح

نفسه؛ إذ سـلك غـير سـبيل المؤمـنين . فهو لقىً, منبوذ , آثم , جـان على نفسه , وخلقه , ودينه , أمته .

من كل أبواب سوء القول قد أخذ بنصيب , فهو يقاسم القاذف , ويقاسم : البهات , والقتات , والنمام , والمغتاب , ويتصـــدر الكـــذابين الوضـــاعين في أعز شـــــــــيء يملكه المســـــــــلم : ((عقيدته وعرضه)) .

قال الله تعالى :

{ والــذين يــؤذون المؤمــنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا } [الأحزاب : 58] .

وهذا البهت قد يوجب : ((ردة)) للقائل نفسه , كما لو قـــــال لمن عمل بالإســـلام : رجعي , متخلف , كما تـــرى تقريـــــره في أبـــواب الـــردة من كتب الشريعة الحديثة والفقهية ؛ ولهــذا ألف ابن قطلوبغا, رسـالة باسـم:((من يكفر ولم يشعر)).

وهذا أسوأ أثر على المتفكهين بهذه الظاهرة فضلا عن آثارها الأخـرى عليـه: منها ســـقوط الجـــراح من احـــترام الآخــرين, وتقويمه بأنه خفيف , طيَّاش ,

رقيق الديانة , صاحب هوى, جـره هـواه وقصـــور نظـــره عن تميـــيز الحق من الباطل , إلى مخاصـــــــــمة المحق , والهجوم عليه بغير حق .

بل وسوأة عظمى احتساب المبتلى هـــذا الســعي بالفســاد , من الــدين , وإظهاره بلباس الشرع المتين , والتلــذذ بذكره , ونشره .

حقا لقد أتعب التـــاريخ , وأتعب نفسه , وآذى التاريخ , وآذى نفسه , فلا هو قـال خيرا فغنم , ولا سكت فسلم .

فإلى قائمة الممقوتين في سجل التاريخ غير مأسوف عليهم :

إن الشقي بالشقاء مولع لا يملك الرد له إذا أتى

* وكم أورثت هذه التهم الباطلة من أذى للمكلوم بها من خفقة في الصــدر , ودمعة في العين , وزفـــــــرات تظلم يرتجف منها بين يـــدي ربه في جـــوف الليل , لهجا بكشـــفها مـــادّاً يديه إلى مغيث المظلومين , كاسر الظالمين .

والظالم يغط في نومه , وسهام المظلـــومين تتقاذفه من كل جـــانب , عسى أن تصيب منه مقتلا .

فيا لله : " ما أعظم الفرق بين من نام وأعين الناس ساهرة تدعو له , وبين من نام وأعين الناس تدعو عليه[6] " .

* وكم جـرت هـذه المكيـدة من قارعة في الـديار , بتشـويه وجه الحق , والوقـوف في سـبيله , وضـرب للـدعوة من حدثاء الأسـنان في عظمـاء الرجـال باحتقارهم وازدرائهم , والاستخفاف بهم وبعلـومهم , وإطفـاء مـواهبهم , وإثـارة الشحناء , والبغضاء بينهم .

ثم هضم لحقوق المسلمين : في دينهم , وعرضهـم .

وتحجيم لانتشـــار الـــدعوة بينهم , بل صناعة توابيت , تقبر فيها أنفاس الدعاة ونفائس دعوتهم ؟؟

انظر : كيف يتهافتون على إطفـاء نورها , فالله حسبهم ,

وهو حسيبهم .

وهذا مطمع مؤكد من خطط أعداء الملة لعدائها , والاستعداء عليها في منظومتهم الفَسْلَة لكيد المسلمين , ومنها :

أن الكفار تكلموا طعنا في راوية الإسلام أبي هريرة- رضي الله عنه- دون غيره من الصحابة-رضي الله عنهم-؛ لأنه أكثرهم رواية, فإذا استسهل الطعن فيه, تبعه من دونه رواية.

لهذا فقد أطبق أهل الملة الإسلامية , على أن الطعن في واحد من الصحابة - رضي الله عنهم - : زندقة مكشوفة .

قال أبو زرعة الرازي – رحمه الله تعالى[7] - :

" إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله- ﷺ-فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن رسول الله- ﷺ- حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة " .

وقد أجرى العلماء هذا الحكم بمن قـــدح في أحد من حملة الشـــرع المطهر ، علماء الأمة العـاملين ؛ لأن القـدح
بالحامل يفضي إلى القـــدح بما يحمله من رســالة البلاغ لــدين الله وشــرعه ؛ ولهذا أطبق العلماء – رحمهم الله تعالى – على أن من أسـباب الإلحـاد :" القـدح بالعلماء ".

قال الدورقي – رحمه الله تعالى -:

" من سمعته يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهمه على الإسلام " .

وقالها أحمد – رحمه الله تعـــالى – في حق يحـــيى بن معين ، وقيلت في حق أبي زرعة ، وعكرمة – رحم الله الجميع - .

" قال سفيان بن وكيع : أحمد عندنا محنة ، من عاب أحمد فهو عنـدنا فاسق " .

وقال غيره : " احمد محنة به يعرف المسلم من الزنديق " .

وقيل فيه :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة

وبحب أحمد يعرف
المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقصا
فاعلم بأن ستوره
ستهتك

فأهل السنة يمتحن بمحبتهم فيتميز أهل السنة بحبهم ؛ وأهل البدعة ببغضهم :

وقال الحافظ ابن عساكر – رحمه الله تعال[8]ى - :

" واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، أن لحوم العلماء – رحمة الله عليهم – مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ؛ لأن الوقعية فيهم مرتع وخيم ، والاختلاف على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم ...." .

ومازالت ثائرة أهل الأهواء ، توظف هذه المكيدة في ثلب علماء الأمة . فقد لجوا في الحط على شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – لأنه عمدة في القرون المتأخرة لإحياء منهج السلف .

ونشروا في العالم التشـنيع على دعوة علمـاء السـلف في قلب الجزيـرة العربية بالرجوع إلى الوحيين الشـريفين ، ونبزهم بشتى الألقاب للتنفير .

وفي عصرنا الحاضر يأخذ الدور في هـــذه الفتنة دورته في مســـلاخ من المنتسبين إلى السـنة متلفعين متلفعين بمرط ينسبونه إلى السـلفية – ظلما لها – فنصبوا أنفسهم لرمي الدعاة بالتهم

الفــاجرة ، المبنية على الحجج الواهية ، واشتغلوا بضلالة التصنيف .

وهذا بلاء عريض ، وفتنة مضلة في تقليص ظل الـدين ، وتشـتيت جماعته ، وزرع البغضــاء بينهم ، وإســقاط حملته من أعين الرعية ، وما هنالك من العنــاد ، وجحد الحق تارة ، ورده أخرى .

صـدق الأئمة الهـداة : إن رمي العلمـاء بالنقـائص ، وتصـنيفهم البـائس من البينات ، فتح باب الزندقة .

* ويا لله كم صـدت هـذه الفتنة العميـــاء عن الوقـــوف في وجه المد

الإلحـــادي ، والمد الطـــرقي ، والعبث الأخلاقي ، وإعطـــــاء الفرصة لهم في استباحة أخلاقيات العباد ، وتـأجيج سـبل الفساد والإفساد .

إلى آخر ما تجره هذه المكيـدة المهينة من جنايـات على الـدين ، وعلى علمائه ، وعلى الأمة ، وعلى ولاة أمرها .

وبالجملة فهي فتنة مضلة ، والقائم بها ((مفتـــون)) و ((منشق)) عن جماعة المسلمين .

****

سندها

* وبعد الإشـــارة إلى آثـــار ((المنشـقين)) وغوائل تصـنيفهم فإنك لو سألت : ((الجـراح)) عن مسـتنده ، وبينته على هـذا ((التصـنيف)) الـذي يصك بع العباد صك الجندل ، لأفلت يديه ، يقلب كفيه ، متلعثما اليـوم بما بـرع به لسانه بـالأمس ، ولوجـدت نهاية ما لديه من بينات هي :

وساوس غامضة ، وانفعالات متوترة ، وحسد قاطع .

وتوظيف لسـوء الظن ، والظن أكذب الحديث .

وبناء الزعم ، وبئس مطية الرجل زعموا .

فالمنشق يشيد الأحكام على هذه الأوهام المنهارة ، والظنون المرجوحة ، ومـــتى كـــانت أساسا تبـــنى عليه الأحكام[9] ؟؟

ومن آحادها السخيفة الـتي يـأتمرون ويتلقون عليها للتصنيف:

* فلان يترحم على فلان ، وهو من الفرقة الفلانية ؟

فانظر كيف يتحرجون رحمة الله ، ويقعـــون في أقـــوام لعلهم قد حطـــوا رحالهم في الجنة ، إضافة إلى التصنيف بالإثم .

* إنه يذكر فلانا بالدرس ، وينقل عنه : والذي تحرر لي أن العلماء لا ينقلون عن أهل الأهواء المغلظة ، والبدع الكبرى – المكفرة - ، ولا عن صاحب هوى أو بدعة في بدعته

، ولا متظاهر ببدعة متسافه بها ، داعية إليها .

وما دون ذلك ينقلـون عنهم على الجادة أي : سبيل الاعتبار ، كالشأن في ســـياق الشـــواهد والمتابعـــات في المرويات .

* ومن مستندات ((المنشقين)) الجـــراحين : تتبع العـــثرات ، وتلمس الزلات ، والهفوات .

فيجرح بالخطأ ، ويتبع العالم بالزلة ، ولا تغفر له هفوة .

وهذا منهج مرد .

فمن ذا الذي سلم من الخطأ – غير أنبيـــاء الله ورســـله - ، وكم لبعض المشـاهير من العلمـاء من زلات ، لكنها مغتفـرة بجـانب ما هم عليه ما هم عليه من الحق والهدى والخير الكثير :

من الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

ولو أخذ كل إنســان بهــذا لما بقي معنا أحد ، ولصــرنا مثل دودة القز ، تطــوي نفسها بنفسها حتى تموت .

وانظر : ما ثبت في ((الصــــحيحين)) عن جـــــابر – رضي الله عنه – " أن

رسـول الله - ﷺ- نهى أن يطـرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يلتمس عثراتهم " .

هذا وهم أهل بيت الرجل وخاصته فكيف بغيرهم ؟

وما شرع أدب الاستئذان ، وما يتبعه من تحسيس أهل البيت بدخول الداخل إلا للبعد عن الوقـــوع على العـــثرات فكيف بتتبعها .

* ومن طرائقهم :

تــرتيب ســوء الظن ، وحمل التصـــرفات قـــولا ، وفعلا على محامل السوء والشكوك .

ومنه : التنـاوش من مكـان بعيد لحمل الكلام على محامل الســـوء بعد بــذل الهم القـاطع للترصد ، والـتربص ، والفرح العظيم بأنه وجد على فلان كــذا ، وعلى فلان كذا .

ومـتى صـار من دين الله : فـرح المسلم بمفارقة أخيه المسلم للآثام .

ألا إن هذا التصيد ، داء خبيث متى ما تمكن من نفس أطفأ ما فيها من نور الإيمـــان ، وصــير القلب خرابا يبابا ، يسـتقبل الأهـواء والشـهوات، ويفرزهـا. نعوذ بالله من الخذلان .

ومن هـذا العـرض يتـبين أن :
((ظـاهرة التصـنيف)) تسـري بـدون مقومـات مقبولة شـرعا ، فهي مبنية على دعـوى مجـردة من الـدليل ، وإذا كـانت كـذلك بطل الادعـاء ، واضـمحلت الدعوى ، وأصبحت غير مسموعة شرعا ، وآلت حـال المـدعي إلى مـدعى عليه تقـام الـدعوى بما كـذب وافـترى وفي الحديث أن النبي - ﷺ- قال :
" لو يعطى الناس بدعواهم ... " الحديث .

دوافعها

* حينئذ يـأتي السـؤال : مـاهي الأسباب الداعية إلى شـهوة التجـريح بلا دليل ؟
والجواب : أن الدافع لا يخلو :
* إما أن يكون الـدافع ((عـداوة عقدية في حسـبانه)) فهـذا لأربـاب التوجهـات الفكرية ، والعقدية المخالفة للإسلام الصحيح في إطار السلف .
وهؤلاء هم الذين ألقوا بذور هذه الظاهرة في ناشئتنا .
* أو يكون الدافع من تلبيس إبليس ، وتلاعبه في بعض العباد بداء الوسواس

، وكثـيرا ما يكـون في هـؤلاء الصـالحين من نفث فيهم أهل الأهـــــــواء نفثة ، فتمكنت من قلـوبهم ، وحسـبوها زيـادة في التـــوقي الـــورع ، فطـــاروا بها كل مطار حـتى أكلت أوقـاتهم ، واسـتلهمت جهـودهم ، وصـدتهم عما هم بحاجة إليه من التحصـيل ، والوقـوف على حقـائق العلم والإيمان .

ولهذا كثرت أسـئلتهم عن فلان ، وفلان ، ثم تنزلت بهم الحال إلى الوقوع فيهم .

وكأن ابن القيم – رحمه الله تعالى – شاهد عيـان لما يجـري في عصـرنا إذ يقول[01] :

" ومن العجب أن الإنسان يهـون عليه التحفظ والاحـتراز من أكل الحـرام ، والظلم ، والزنا ، والسـرقة ، وشـرب الخمر ، ومن النظر المحرم ، وغير ذلك .

ويصـعب عليه التحفظ من حركة لسـانه ، حـتى نـرى الرجل يشـار إليه بالـدين ، والزهد ، والعبـادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالا

، وينزل بالكلمة الواحـدة منها أبعد ، بين المشرق والمغرب .

وكم تـرى من رجل متـورع عن الفــواحش والظلم ولســانه يفــري في أعـراض الأحيـاء والأمـوات ولا يبـالي ما يقول)انتهى .

* أو يكون الدافع : ((داء الحسد والبغي والغـيرة)) وهي أشد ما تكـون بين المنتســــبين إلى الخــــير والعلم ، فـإذا رأى المغبـون في حظه من هبـوط منزلته الاعتبارية في قلــــوب الناس ، وجفولهم لهم عنه ، بجانب مــــا كتب الله لأحد أقرانه من نعمة – هو منهـــــــا محـــروم - ، من القبــول في الأرض ، وانتشــار الــذكر ، والتفـــاف الطلاب حوله ، أخذ بتـــوهين حاله ، وذمه بما يشبه المدح ، فلان كـذا إلا أنه ...

وقد يسلك – وشتان بين المسلكين – صــنيع المتــورعين من المحــدثين في المجـروحين كحركـات التـوهين ، وصـيغ الدعاء الـتي تشـير إلى المؤاخـذات ، والله يعلم أنه لا يريد إلا التمــــــريض ،

يفعل هــذا كمــدا من بــاب الضــرب للمحظوظين بوساوس المحرومين .
وكل هذا من عمل الشيطان .
ومن هنا تبتهج النفس بدقة نظر النقــاد ؛ إذ صــرفوا النظر عما ســبيله كذلك من تقادح الأقران .
ولهذا تتابعت كلمات السلف كما روى بعضا منها ابن عبدالبر – رحمه الله تعالى – بأسـانيده في : ((جامعه)) عن ابن عبــاس –ر ضي الله عنهما – ومالك بن دينـــار ، وابن حـــازم – رحمهم الله تعالى – ومنها :
" خـذوا العلم حيث وجـدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضــهم على بعض ، فـــإنهم يتغـــايرون تغـــاير الـــتيوس في الزريبة " .
وقال أبي حازم :
" العلمـاء كـانوا فيما مضى من الزمان إذا لقي العـالم من هو فوقه في العلم كـــان ذلك يـــوم غنيمة ، وإذا لقي من هو مثله ذاكـــــره ، وإذا لقي من هو دونه لم يزه عليه حتى كان هـذا الزمـان ، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء أن ينقطع منه حتى يرى الناس أنه ليس

به حاجه إليه ، ولا يـــذاكر من هو مثله ، ويزهى على من هو دونه ، فهلك النـاس " .

وصدق النبي - ﷺ- فيما رواه حواري رسـول الله - ﷺ- وابن عمته : الزبـير بن العــوام – رضي الله عنه – أن رســول الله - ﷺ- قال :

" دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضــاء ، البغضــاء هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده لا تـدخلوا الجنة حـتى تؤمنــوا , ولا تؤمنــوا حــتى تحــابوا، ألا

---

[1] أنظرها : (ص / 26 – 28) .

[2] هل يقال : " هاأنا " أو : " هاأنا ذا " فيه بحث أنظره في " التحرير والتدوير " : (1 / 586-588) . لكن لم يظهر لي تماماً توجيهه .

[3] " مجموع الفتاوى " : (28 /237 – 238) .

[4] " الصواعق المرسلة " : (1 / 353) .

[5] في رسالتي : " تغريب الألقاب العلمية " . زيادة بيان لها .

[6] من كلام ابن القيم - رحمة الله تعالى - .

[7] " فتح المغيث " : (4/94).

[8] " تبين كذب المفترى " : (ص/29).

[9] أنظر : " الفتاوى " : (13/110 - 112).

[01] " الداء والدواء" : (ص/187).

أنـــــبئكم بما يثبت ذلك لكم : أفشـــــوا السلام بينكم ".
* أو الدافع : ((عـداوة دنيوية))
فكم أثارت من تباغض وشـحناء ، ونكد ، ومكابـــدة ، فهـــؤلاء دائما في غصة من حيـاتهم ، وتحـرق على حظـوظهم ، ولا ينالون شيئا .

" وإنما أهلك الناس الدرهم والدينار " .
واللبيب يعرف شرح ذلك .
وعلى كل حال فإن الهوى هو الذي يحمل الفـريقين على هـذه الموبقـات ، وقد يجتمع في الإنسان أكثر من دافع .
وأشدهم طوعا للهـوى ، أكـثرهم إغراقا في هـذه الـدوافع ؛ إذ إن إصـدار أي حكم لا يخلو من واحد من مأخذين لا ثالث لهما :
1- الشـريعة : وهي المسـتند الحق وموئل ((العدل)) ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

2- الهــوى : وهو المأخذ الــواهي الباطل المــذموم ، ولا يــترتب عليه حق أبدا .

والهوى – نعوذ بالله منه – هو أول فتنة طرقت العالم ، وباتباع الهــوى ضل إبليس ، وبه ضل كثــــــير من الأمم عن اتبــاع رســلهم وأنبيــائهم كما في قصص القرآن العظيم ؛ ولهــذا حكم الله – وهو أعــدل الحــاكمين – أنه لا أحد أضل ممن اتبع هواه ، فقال سبحانه :

{ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله } [القصص : 50]

وقال تعالى

{ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الــذين يضــلون عن ســبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب } [ص : 66]

ولـذلك قيل للمـائلين عن ســبيل القصد :(أهل الأهواء) ؛ وذلك لاتبــاعهم الهوى ، أو لأنها تهوي بأهلها في النار .

* وإذا كان أهل الأهواء قد نجحوا في نفثتهم المحمومة هــــــــذه ، ففتح الأغــرار بها كــوة على علمــائهم ، فــإن اللادينــيين قد حولوها إلى بــاب مفتــوح

على مصــراعيه ، فــألحقوا كل نقيصة ، وسـخرية في كل متـدين وعبد صـالح ، وأما العلمـــاء فقد جعلـــوهم ((وقـــود البلبلة وحطب الاضطراب)) .

الاشتقاق بها

* وإذا كـانت هـذه الظـاهرة مع شــيوعها ، وانتشــارها ، واهية السـند ، معدومة البينة ، فمن هو الـــذي تـــولى كبرها ، ونفخ في كيرها ، وســـعى في الأرض فسـادا بنشـرها ، وتحريك الفتن بها ، والتحريش بواسطتها ؟؟؟

والجواب : هم أرباب تلك الدوافع، ولا تبتعد فتبـــتئس وخل عنك التحـــذلق والفجور، نعوذ بالله من أمراض القلـوب .

والنفس لا تتقطع حسرات هنا ، فإن من في قلبه نـــوع هـــوى وبدعة ، قد عـرفت هـذه الفعلات من جـادتهم الـتي يتوارثونها على مـدى التـاريخ ، وتـوالي العصر ، وقد نبه على مكايدهم العلماء ، وحذروا الأغرار من الاغترار ...

لكن بلية لا لعاً لها ، وفتنة وقى الله شرها حين سرت في عصـرنا – ظـاهرة الشـــغب هـــذه إلى من شـــاء الله من

المنتسبين إلى السنة , ودعوى نصرتها ، فاتخــذوا ((التصــنيف بــالتجريح)) دينا وديدناً ، فصـاروا إلبـاً على أقـرانهم من أهل الســـنة ، وحربا على رؤوســـهم ، وعظمـــائهم ، يلحقـــونهم الأوصـــاف المرذولة ، و ينـــــبزونهم بالألقــــاب المستشنعة المهزولة ، حـتى بلغت بهم الحـال أن فـاهوا بقـولتهم عن إخـوانهم في الاعتقاد ، والسنة ، والأثر:(هم أضر من اليهـود والنصـارى) و (فلان زنـديق)؟؟

وتعـاموا عن كل ما يجتـاب ديـار المسلمين، ويخترق آفـاقهم، ومن الكفر ، والشـرك ، والزندقة ، والإلحـاد ، وفتح سبل الإفساد والفساد ، وما يفد في كل صـباح ومسـاء من مغريـات وشـهوات ، وأدواء وشـــبهات ، تنتج تكفـــير الأمة ، وتفسـيقها ، وإخراجها نشأ آخر منسـلخا من دينه وخلقه .

وهنا ، ومن هـذا ((الانشـقاق)) تشفى المخالف بواسطة

((المنشـــقين)) ووصل العـــدو من طـريقهم ، وجنـدوهم للتفريق من حيث يعلمون أولا يعلمـون ، وانفض بعضٌ عن

العلمــاء ، والالتفــاف حــولهم ، ووهنــوا حالهم ، وزهدوا الناس في عملهم.

وبهـؤلاء ((المنشـقين)) آل أمر طلائع الأمة ، وشـــــــبابها إلى أوزاع ، وأشتات ، وفرق ، وأحزاب، وركض وراء السراب، وضياع في المنهج ، والقـدوة ، وما نجا من غمرتها إلا من صـــــــحبه التوفيق ، وعمر الإيمان قلبه .

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهـذا(الانشـقاق) في صف أهل السـنة لأول مـرة– حسـبما نعلم – يوجد في المنتسبين إليهم من يشاقهم، ويجند نفسه لمثـــــافنتهم ، ويتوسد ذراع الهم لإطفــاء جــذوتهم، والوقــوف في طريق دعــوتهم، وإطلاق العنـان للسـان يفـري في أعراض الـدعاة ويلقي في طـريقهم العوائق في:(عصبية طائشة).

فلو رأيتهم – مساكين يرثى لحالهم وضياعهم – وهم يتواثبـون ، ويقفـزون ، والله أعلم بما يوعــــون ، لأدركت فيهم الخفة والطيش في أحلام طــير . وهــذا شــأن من يخفق على غــير قاعــدة ولو حاججت الواحد منهم لما رأيت عنـده إلا قطعة من الحمـاس يتـدثر بها على غـير

بصـيرة ، فيصل إلى عقـول السـذج من بـاب هـذه الظـاهرة : الغـيرة . نصـرة السنة . وحدة الأمة . وهم أول من يضع رأس المعـول لهـدمها ، وتمزيق شـملها ...

لكن مما يطمئن أن هذه : ((وعكة)) مصـــيرها إلى الاضـــمحلال و ((لوثة وافــدة)) تنطفي عن قــريب ، وعــودة ((المنشـقين)) إلى جماعة المسـلمين أن تعلم :

* أن هذا التبدد يعيش في أفراد بلا أتباع ، وصدق الله :

{ وما للظـالمين من أنصـار } [البقرة : 270] .

ومن صالح الدعاء :

{ ربنا لا تجعلنا من القوم الظالمين } [الأعراف : 47] .

وقوله تعالى :

{ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين } [المؤمنين : 94]

* وأن هـؤلاء الأفـراد يسـيرون بلا قضية .

* وأن جولانهم : هو من فـزع وثبة الانشـقاق ؛ ولهـذا تلمس فيهم زعـارة ، وقلة توفيق .
فلا بد 0 بإذن الله تعالى – أن تخبوا هـــــذه اللوثة ، ويتقلص ظلها ، وتنكتم أنفاسـها ، ويعـود ((المنشق)) تائبا إلى صف جماعة المسلمين ، تاليا قــول الله تعالى { ربي نجني من القوم الظـالمين } [القصص : 21] .

تبعة فشوها

* ثم يأتي سؤال ثان :
من الذي يحمل تبعة فشو ((ظاهرة التصـــنيف)) فالانشـــقاق عن ((أهل السنة)) ؟؟
يحتمل تبعتها فريقان :
الأول : الغـافلون عن تنفس التوجهات الفكرية، والعقديـة، والمادية ، وزرعها في أفئدة الناشئة .
وأصله : التفريط في الغيرة على الحق ، والأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر ، ومد بســاط : عسى ، ولعل .
الثاني: غياب العـالم القـدوة عن القيـام بدوره الجهـادي الـتربوي - بلا تذبـذب -

كل بما فتح الله عليه حسب وسـعه وطاقته .
لهذين الأثر العظيم في تنفس هذه الظاهرة .

العمل لمواجهتها

هذه هي حقيقة هـذه الظـاهرة ، وآثارها ، ومستندها ، ودوافعها ، ومتولي كبرها ، وأسباب فشوها ، وتفنيدها .
حينئذ يأتي سؤال يفرض نفسه :
ما العمل لمواجهتها ، وكف بأسـها عن المسلمين ؟
فأقول :
العمل في أصول إلى ثلاث فئات :

1- إلى ((الجـــراح)) المتلبس بظاهرة التصنيف .
2- إلى الذي وجه إليه التصنيف .
3- أصول لهمـا، ولكل مسـلم يريد الله والدار الآخرة.

فإلى بيانها :

إِلَى مُحْتَرِفِ التَّصْنِيفِ
قَدِّر لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا
فَمَنْ عَلاَ زَلَقاً عَنْ
غِرَّةٍ زَلَجَا

إلى محترف التصنيف

كانت العـرب في جاهليتها تعـاقب الشـاعر الهجـاء بشد لسـانه بنسـعة - سـير من جلد مفتـول - أو يشـترون منه

لســانه بــأن يفعلــوا به خــيراً ، فينطلق لســانه بشــكرهم ، فكأنما ربط لســانه بنسعة .

قـال عبد يغـوث بن الحـارث لما أسرته " تيمٌ " : يوم الكلاب الثاني[11] :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشر تيم
أطلقوا لسانيا

وقد أقرت الشـريعة هـذه العقوبة بالمعنى الثاني ، منذ أن أمر بها النــبي - ﷺ- في غـزاة حـنين ، يــوم توزيع الغنـائم فقـــال - ﷺ- " اقطعـــوا عـــني لسانه".

وهذه سنة الله ماضية في مواجهة من يمس الأخــوة الإســلامية بســوء من القول .

ولهذا أنفذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله

[11] " عقوبــات العــرب على المعاصي " للآلوسي – رحمه الله - .

عنـــه-في الحطيئـــة: جـــرول بن أوس العبسي المتوفي سنة 45 هــ. لما أكـثر من هجــاء الزبرقــان بن بــدر التميمي - رضي الله عنه - فشـــــــكاه إلى عمر - رضي الله عنه - فسجنه عمر بالمدينة ، فاستعطفه بأبياته المشهورة ، فأخرجه ، ونهــاه عن هجــاء النــاس ، فقــال : إذاً تموت عيالي جوعاً .... فاشترى عمر - رضي الله عنه - منه أعـــــــــــراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

فــأوقع عمر - رضي الله عنه - بالحطيئة عقوبتين :

حبس الأبدان ، وحبس اللسان .

ثم ترى هذه في تاريخ المسلمين الطويل ، يبذلون العطــاء ، لقطع ألسـنة اللسن ، وكف بـــذاءتهم عن اعـــراض المسلمين .

وإذا كانت هذه عوامل دفع للأذى ، وتطهير للسـاحة الإسـلامية من البـذاء ، فقد حفلت الشـــريعة بنصـــوص الوعيد لمن ظلم ، واعتـــدى ، تنـــذر بعمومها محترفي التصنيف ظلماً وعدواناً ، وظناً وبهتاناً ، وتحريشاً وإيذاءً .

فالظالم : قد ظلم نفسه ، وخسرها ، متبع لهواه ، قد بدل الحق إلى الباطل ، يحول القول إلى غيره ، مفتر ، كـذاب ، حجته أبداً : الهوى ، متعد لحدود الله ، ولهـذا اسـتحق هـذا الوصف البشع : " الظـالم " كما قـال الله تعـالى : ((ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظـالمون)) [البقرة : 229] .

* ومحاصرة للظلم وأهله ، فقد جـاءت النصـوص ناهية عن معاشـرة الظـالم ، والركـون إليه ، وتوليه ، والقعـود معه ، ((فلا تقعد بعد الـذكرى مع القوم الظالمين))
[الأنعام : 68] . والنهي عن السكن في مسـكنه ، ويخـاطب بغـير الـتي هي أحسن ، وأن السـبيل عليه : ((إنما السـبيل على الـذين يظلمـون النـاس)) [الروم : 42] .

والظالم : لايفلح . وليس له من أنصـار . والله لايحب الظـالمين ولا يهـديهم . وليس للظـالم من ولي ولا نصـير . ودائمـاً في ضـلال مـبين . وفي زيـادة خسـار وتبـاب . وعليه اللعنة . وللظـالم سـوء العاقبة ، وقطع دابـره .

والظالم وإن قوي فإن القوة لله جميعـاً . ولاعدوان إلا على الظالمين .
وقد تنـوعت عقوبـات الظلمة والظالمين في هذه الدنيا :
بزجر من السماء . والأخذ بالصاعقة ، وبالطوفان . وتدمير بيوتهم ، وخوائها . وأخذ الظالم بعذاب بئيس ، وأن عقوبة جرمه تعم . وحاله شديدة في غمرات الموت. وللظالم من الوعيد يوم القيامة : الوعيد بالنار ، وبويل ، وبعذاب كبير ، وسيعض على يديه . وسيجد ماعمل حاضراً ولايظلم ربك أحداً .
* وتجريح الناس وتصنيفهم بغير حق ، شعبة من شـعب الظلم ، فهو من كبائر الذنوب والمعاصي ، فاحذر سلوك جادةٍ يمسك منها عذاب .
وقد ثبت من حـديث ابي هريـرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال :
((لتؤدن الحقوق يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرنـاء)) .رواه أحمد ، ومسلم .
وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال :

((سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - أي العمل أفضل ؟ قال إيمان بالله وجهاد في سبيله ، قلت : فأي الرقاب أفضل ؟ قال : أعلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها ، قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين ضائعاً ، أو تصنع لأخرق)) .

قال : فإن لم أفعل ؟ قال :

تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك))

متفق عليه .

وثبت عن النبي - ﷺ- أنه قال :

((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) .

وثبت أيضاً أن النبي - ﷺ- قال :

((لاتحاسدوا ولاتناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا،ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى ههنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)) .

وثبت أيضاً من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ- قال :
((أتدرون ما المفلس ؟)) قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متـــاع . فقـال : ((إن المفلس من أمـتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصـيامٍ وزكـاةٍ ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هـذا. فيعطى هـــذا من حســـناته وهـــذا من حسناته . فـإن فـنيت حسـناته ، قبل أن يقضى ماعليه ، أخذ من خطايـــــــاهم فطــرحت عليه . ثم طــرح في النــار)) رواه مســلم

وساق الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى- في "الإصابة "عن أم الغادية -رضي الله عنها- قالت:خرجت مع رهط من قـــومي إلى النـــبي - ﷺ- فلما أردت الانصراف ، قلت : يا رسول الله أوصني ، قال :
((إياك ومايسوء الأذن)) .
رواه ابن منده ، والخطيب في " المؤتلف والمختلف " .
وساق أيضاً عن عمر - رضي الله عنه - :

((لا يعجبنكم طنطة الرجل ، ولكن من أدى الأمانة ، وكف عن أعـــــراض الناس فهو الرجل)) .

رواه أحمد في "الزهد "

وساق أيضاً من محاسن شعر أبي الأسود الدؤلي :

لاترسلن مقالة مشهورة
لاتستطيع إذا مضت إدراكها

لاتبدين نميمة نبئتـها
وتحفظـن من الذي أنباكهـا

والنصوص الواردة وفيها بيان أنواع العقوبـات على هـذا في الـدارين ، أكـثر من أن تحصر ، وربما يبتلى " الجــراح " بمن يشـينه بأسـوأ مما رمي به غـيره ، مع ما يلحقه من سوء الذكر حياً وميتاً ، فنعوذ بالله من سوء المنقلب .

فيا محترف الوقيعة في أعراض العلمـاء ، اعلم أنك بهـذه المشـاقة قد خـــرقت حرمة الاعتقـــاد الـــواجب في موالاة علماء الإسلام .

قال الطحاوي - رحمه الله تعالى - في بيان معتقد أهل السنة في ذلك[21] :
((وعلماء السلف من السابقين ، ومن بعــدهم من التــابعين - أهل الخــير والأثر ، أهل الفقه والنظر - لايذكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بســوء فهـو على غير سبيل))
قال شارحه - رحمه الله تعالى - :
" قــال تعــالى ((ومن يشــاقق الرسول من بعد مــاتبين له الهـدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصـله جهنم وساءت مصيراً)) [النساء : 115] .
فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ، ورسوله ، مــوالاة المؤمــنين ، كما نطق به القــرآن ، خصوصــاً الــذين هم ورثة الأنبياء ، الـذين جعلهم الله بمنزلة النجــوم ، يهتـدي بهم في ظلمــات الــبر والبحر ، وقد أجمع المســــــلمون على هـــــدايتهم ، ودرايتهم ، إذ كل أمة قبل مبعث محمد - ﷺ- علماؤهــا

[21] " العقيدة الطحاوية مع شرحها" : (ص/491).

شـرارها ، إلا المسـلمين فـإن علمـاءهم خيارهم ، فإنهم خلفاء الرسول من أمته ، والمحيـون لما مـات من سـنته ، فبهم قـــام الكتـــاب ، وبه قـــاموا وبهم نطق الكتــاب وبه نطقــوا ، وكلهم متفقــون اتفاقا يقينياً على وجوب اتباع الرسول - - ولكن إذا وجد لواحد منهم قـــــول قد جاء حـديث صـحيح بخلافه ، فلابد له في تركه من عذر - ثم ذكرها)) انتهى .

وإني أقول : إن تحرك هؤلاء الذين يجولون في أعراض العلماء اليوم سوف يجـــرون - غـــداً - شـــباب الأمة إلى مـرحلتهم الثانية[31]: الوقيعة في أعـراض الـــولاة من أهل الســـنة ، وقد قيل : " الحركة ولـود ، والسـكون عـاقر " . وهو أسـوأ أثر يجـره المنشـقون وهـذا خـرق آخر لجانب الاعتقاد الـواجب في مـوالاة ولي أمر المســلمين منهم . " وســوف يحصد الزوبعة من حرك الريح " .

قال الطحاوي - رحمه الله تعال[41]ى - :

[31] وهي نتيجة حتمية لمنهجهم ، فلهم بالأمس أسلاف في حادثة الحــرم " الســوداء " عــام 1400 هـــ ... اختلفت الأساليب والغاية واحدة.

((ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنـــا، وإن جــاروا، ولا نـــدعوا عليهم، ولاننزع يداً من طـاعتهم، ونرى طاعتهـم مـــــــــن

طاعة الله - عز وجل - فريضة مــــــالم يأمروا بمعصية .

وندعو لهم بالصلاح والمعافاة . ونتبع السـنة والجماعة ، ونتجنب الشــذوذ ، والخلاف ، والفرقة)) انتهى .

فاتق الله أيها الجراح ، واعلم أن احترافك التجريح بالتصـنيف مختـبر ينفذ منه النـــاس بـــاليقين إلى وصف منك لــدخائل نفسك ، وماتحمله من ميــول ، ودوافع ، فتقيم الشاهد عليك من فلتات لسـانك ، وإدانة المــرء من فيه أقــوى ، فـــــأحكم - رحمك الله - الرقابة على اللســان لايــوردك مــوارد الهلكة ، ولا تمش براحلة العمر - الــــوقت - وأنت تثقلها بهـذه الظـاهرة الفتاكة " ظـاهرة الهدم والتـدمير " فتحـرق في غمرتها : الجهد ، والنشـــاط ، وبواكـــير الحيـــاة

---

[41] " شرح الطاحوية " : (ص/379 - 382).

ومقتبل العمر ، بل وربما خاتمته ، أعاذنا الله وإياك من سوء الخاتمة .

والزم - عافاك الله - تقوى الله ، ومراقبته ، والإنابة إليـــه، واســـتغفاره ، واحذر صنعة المفاليس هذه ، وتدبر هذه الآية :

((ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يسـتغفر الله يجد الله غفـوراً رحيمـاً)) [النساء : 40] .

وقوله تعـــالى : ((فمن تـــاب من بعد ظلمه وأصــلح فــإن الله يتــوب عليه إن الله غفور رحيم)) [المائدة : 39] .

فبادر - ياعبدالله - إلى التوبة ، وأداء الحقـوق إلى أهلها ، والتحلل منهم ، فقد ثبت عن نبي الهدى - ﷺ- أنه قال :

((من كـــانت عنـــده مظلمة لأخيه من عرضه ، أو ماله ، فليؤدها إليه ، قبل أن يـــأتي يـــوم القيامة لايقبل فيه دينـــار ولادرهم ....ـ)) الحـــديث . رواه البخاري .

ولعلي بهذا كما قـال صخر :

لعمري لقد نبهت من كـان نائـماً

وأسمعت من
كـانت لـه أذنان

وكل عبد صـالح يسـمع الخيـر ، سـماع اسـتجابة ، وهـذا شـأن المـؤمن أواهٌ مـنيب ، ومن لحقه الإدبـار فـأبى ، فإليه :

((إن الله يســـمع من يشـــاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور))
[فاطِر : 22] .

وأنشـد ابن الشجـري :

إذا نهي السفـيه جرى إليـه
وخالف والسفـيه
إلى خـلاف

وهذا يعاني : " أزمة في الضمير " و " ذبحة في الصـــدر " ، إذ تمكن منه الداء ، وللميـؤس أحكـام بينها الفقهـاء ، نعوذ بالله من الشقاء .

وما بقي لمن أبى إلا الحجر على لسانه لصالح الديانة .

أما من كانت وقيعته ظلماً فيمن عظم شـــأنه في المســـلمين بحق ، فينبغي تغليظ عقوبة الواقع ، إضافة إلى الحجر على لسـانه ، ولهـذا نظـائر في

الشـــريعة ، كوقـــوع الظلم في الأشـــهر الأربعة الحـــرم ، والـــرفث والفســـوق والجـــــدال في الحج ، وتغليظ الدية في النفس وفي الجراح في الشهر الحرام ، وفي البلد الحـــرام ، وفي ذوي الـــرحم ، كما هو مذهب الشافعي ، فهذه وأمثالها محرمات على كل مسلم في كل زمـــان ومكـــان ، لكن لما عظم الجـــرم بتعـــدد جهات الانتهاك ، عظم الإثم ، والجزاء .
ولمثل هـــؤلاء - كما قـــال عبد الله بن المبـــــارك - رحمه الله تعـــــالى - :
(تقشـــر العصـي) .
والله أعلم .

إلى مــن رُمــي بالتصــنيف ظُلْــــماً

إلى من رُمى بالتصنيف ظُلْماً

اتل ما أوحي إلى نبيك - صلى الله عليه وسلم - :
((ما يقــال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليـم)) [فصلت : 43].
والقرآن العظيم قد حوى قصص أنبيــاء الله ورســله مع أممهم ومايانــالهم من الأذايا والبلايا في ســبيل الدعوة، ولهــذا فقد وفق من أفـــرد قصصـــهم وشـــرحها، وأحسن كل الإحســان من ألف باسم : " دعــوة الرسل " .
وهذه سنة من الله ماضية لكل من سلك سبيلهم ، واقتفى أثرهم .
ألم تر سير الصحابة والتابعين وأتبــاعهم في كل عصر ومصر إلى عصـــرنا الحــزين ، كيف يقــاومهم المبطلــون ، ويشنع عليهم المبطنون .
وفي هــذا مواقف لا تحصى ، وقصص لا تنسى ، وإذا قرأت كتــاب : " من أخلاق العلمـــاء " رأيت من ذلك عجباً .
فكم في ســيرهم الشــريفة من إمــام ضرب بل قتل ، وإمام

سـجن ، وإمـام عـزل وأهين ، بل فيهم من جمعت له هـذه كلها أو جلها ، بما لبس في حقهم الملبسـون ، وأرجف المرجفـون ، وهم منها بـراء ، والمرجفـون في قـرارة أنفسـهم عليها شهداء .

وخذ أمثلة على هـذا فيمن رمي بشناعة وهو منها برئ :

فرمي جماعة من فحـول العلمـاء بالتشـيع ، وآخـرون بالنصب ، وآخـرون بـالتجهم ، وغـير ذلك ، وهم من هـذه النحل الفاسدة براء .

ومنهم - أجزل الله مثوبتهم - من حكي ما وقع له على سـبيل ما من الله به عليه من لـزوم السـنة ، ونصـرتها ، والدعوة إليها ورجـاء مضـاعفة الأجر بما يصنعه الأضداد البؤساء .

وفي حياة الإمام أحمد - رحمه الله تعـالى - وهو يعيش بين محنة الـدنيا والدين ، عبرة للمعتبرين .

وخذ على سبيل المثال : ابن العربي المالكي المتوفى سـنة 543 هـ - رحمه الله تعالى - إذ يقول في فاتحة كتابه " عارضة الأحوذي " :

((فإن طائفة من الطلبة عرضـوا علي رغبةً صادقة في صرف الهمة إلى شرح كتــاب أبيٍ عيسى الترمــذي، فصــادف مني تبعاداً
عن أمثال ذي ، وفي علم علام الغيوب أني أحرص الناس على أن تكون أوقاتي مستغرقةً في باب العلم ، إلا أني مـنيت بحسدةٍ لايفتتون ؟ ومبتدعة لا يفهمون ، قد قعدوا مني مزجر الكلب يبصبصون ، والله أعلم بما يتربصون :

((قل هل تربصون بنا إلا إحـدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصـيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصــوا إنا معكم متربصون)) [التوبة : 52] .

بيد أن الامتناع عن التصريح بفوائد الملة ، والتـــبرع بفوائد الرحلة لعـــــدم المنصف ، أو مخافة المتعسف ، ليس من شأن العالمين ، أو لم يسمعن قــول رب العالمين لنبيه الكريم :

((فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين)) [الأنعام : 89] .)) انتهى .

وحيــاة بطل الإصــلاح الــديني بالمشـــرق شـــيخ الإســـلام ابن تيمية

المتوفى سنة 728هـ - رحمه الله تعالى - مثلٌ أعلى للعلماء العـاملين ، والـدعاة المصــلحين من أتبــاع خــاتم الأنبيــاء والمرسلين - ﷺ -

وهـذا عصـريه بـالمغرب الإمـام الشاطبي المتوفى سـنة 79 هــ - رحمه الله تعالى - يحكي حاله لما قام بنصــرة الســنة ، فجن عليه الليل والنهــار بقالة السـوء المظلمة ، فيقـول - رحمه الله تعالى[51] - :

(فتردد النظر بين - أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلابد من حصــول نحو مما حصل لمخــالفي العوائد ، لاسيما إذا دعي أهلها أن ماهم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل مافيه من الأجر الجزيل - وبين أن أتبعهم على شـــــرط مخالفة السـنة والسـلف الصـالح ، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائـذاً بالله من ذلك ، إلا أني أوافق المعتاد ، وأعد من المـؤالفين ، لا من المخــالفين ، فــرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجـاة ، وأن النـاس لن يغنـوا عـني من الله شـيئاً ، فأخـذت

---

[51] " الاعتصام " : (1/ 20 – 22) .

في ذلك على حكم التـــــدريج في بعض الأمور ، فقامت علي القيامة ، وتـواترت علي الملامة ، وفوق إلي العتاب سهامه ، ونسبت إلي البدعة والضلالة ، وأنزلت منزلة أهل الغبـــاوة والجهالة ، وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجاً لوجدت ، غير أن ضـيق العطن ، والبعد عن أهل الفطن ، رقي بي مـرتقى صعباً،وضيق علي مجالاً رحبـاً، وهو كلامٌ يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات، لموافقة العادات،

أولى من اتـــــباع الواضـــــحات ، وإن خالفت السلف الأول .

وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب ، أو خرجــــــوا بالنســــــبة إلى بعض الفـــرق الخارجة عن الســـنة شـــهادة ستكتب ويسألون عنها يوم القيامة .

فتـارةً نسبت إلى القول بأن الدعاء لاينفع ولا فائـدة فيه كما يعـزى إلى بعض النـــاس ، بســـبب أني لم ألـــتزم الدعاء بهيئة الاجتمـاع في أدبـار الصـلاة حالة الإمامة . وسيأتي مافي ذلك

من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء .

وتارةً نسبت إلي الرفض وبغض الصحابة - رضي الله عنهم - ، بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص ، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم ، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وقد سئل " أصبغ " عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين[61] فقال :

---

[61] إن كان يقصد الخلفاء الراشدين : أبا بكر، وعمر، وعلي - رضي الله عنهم - فلا، ومن نظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في مواضع من " منهاج السنة " رأى أن الترضي عن الخلفاء الأربعة الراشدين في خطبة الجمعة، من حسنات أهل السنة في مواجهة أهل الهوى والبدعة، الذين أنبتوا في وسط المسلمين مقالات الرفض، والنصب، فصار في الترضي عنهم على منابر المسلمين، وشهود عامتهم وخاصتهم، تلقين الناس للمعتقد الحق، ومنابذة ما سواه . فليعلم
وأما الدعاء مطلقاً لولي أمر المسلمين منهم فهو من سنن الهدي .
أنظر : " شرح الطحاوية " (379) و " التأصيل " : (1/ـ 76ـ- 77) لراقمه ، وأما في خطبة الجمعة ، وداخل الصلاة ففيه بحث حررته في كتاب : " تصحيح الدعاء " .؟

هو بدعة ولا ينبغي العمل به ، وأحسنه أن

يدعو للمسلمين عامة . قيل له : فدعاؤه للغزاة والمرابطين ؟ قال : ما أرى به بأساً عند الحاجة إليه ، وأما أن يكون شيئاً يصمد له في خطبته دائماً فإني أكره ذلك .

ونص أيضاً عز الدين بن عبد السلام : على أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة .

وتارة أضيف إلي القول بجواز القيام على الأئمة ، وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في الخطبة ، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم .

وتارة أحمل على التزام الحرج والتنطع في الدين ، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على

مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه ، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه ، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره . وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك وللمسألة بسط في كتاب " الموافقات " .

وتارة نسبت إلي معاداة أولياء الله ، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة ، المنتصبين - بزعمهم - لهداية الخلق ، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم .

وتارة نسبت إلي مخالفة السنة والجماعة ، بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها - وهي الناجية – ما عليه العموم ، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي - ﷺ- وأصحابه و التابعون لهم بإحسان.وسيأتي بيان ذلك بحول الله، وكذبوا علي في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال .

فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع

أهل زمانه ، إذ حكي عن نقسه فقــال : ((عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقـــربين مـــني ، والأبعـــدين ، والعـارفين ، والمنكـرين ، فـإني وجـدت بمكة ، وخـــرا ســـان ، وغيرهما من الأمــاكن أكـثر من لقيت بها موافقــاً أو مخالفـــاً ، دعـــاني إلى متابعته على ما يقوله ، وتصديق قوله والشهادة له فــإن كنت صدقته فيما يقـول وأجـزت له ذلك - كما يفعل أهل هـذا الزمـان - سـماني موافقاً .

وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله - سماني مخالفاً .

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والســـنة بخلاف ذلك وارد ، ســـماني خارجياً .

وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً .

وإن كان في الرؤية سماني سالمياً .

وإن كان في الإيمان سماني مرجئياً .

وإن كان في الأعمـال ، سـماني قدرياً .

وإن كـان في المعرفة سـماني كرامياً .

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر ، سماني ناصبياً .

وإن كان في فضائل أهل البيت ، سماني رافضياً .

وإن سكتُ عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما ، ســـــــماني ظاهرياً .

وإن أجبت بغيرهما ، سماني باطنياً .

وإن أجبت بتأويل ، سماني أ شعرياً .

وإن جحدتهما ، سماني معتزلياً .

وإن كان في السنن مثل القراءة ، سماني شافعياً .

وإن كان في القنوت ، سماني حنفياً .

وإن كان في القرآن ، سماني حنبلياً .

وإن ذكـرت رجحـان ما ذهب كل واحد إليه من الأخيــــــار -إذ-ليس في الحكم والحديث محاباة-قــالوا:طعن في تزكيتهم .

ثم اعجب من ذلك أنهم يسـمونني فيما يقـرؤون علي من أحـاديث رسـول الله ما يشـــــتهون من هـــــذه الأسامي،ومهما وافقت بعضـهم عـاداني غــيره،وإن داهنت جمــاعتهم أســخطت الله تبـارك وتعـالى،ولن يغنـوا عـني من الله شــــيئاً.وإني مستمسك بالكتـــاب والسنة،وأسـتغفر الله الـذي لا اله إلا هو الغفور الرحيم

هذا تمام الحكاية فكأنه رحمه الله تعـالى تكلم على لسـان الجميـع. فقلما تجد عالماً مشهوراً أو فاضـلاً مـذكوراً ، إلا وقد نُبز بهـذه الأمـور أو بعضـها ، لأن الهـوى قد يـداخل المخـالف ، بل سـبب الخـــروج عن الســـنة : الجهل بها ، والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف ، فــإذا كـان كـذلك حُمل على صــاحب السنة ، أنه غير صاحبها ، ورُجع بالتشنيع عليــه

والتقبيح لقوله وفعله ، حتى ينسب هـذه المناسب .

وقد نُقل عن سـيد العبـاد بعد الصـحابة أويس القـرني أنه قـال : " إن

الأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر لم يـــدعا للمـــؤمن صـــديقاً ، نـــأمرهم بـــالمعروف فيشـــتمون أعراضـــنا ، ويجدون في ذلك أعواناً من الفاسقين ، حــتى - والله - لقد رمــوني بالعظــائم ، وايم الله لا أدع أن أقـــــوم فيهم بحقه " .) انتهى .

وعليه فألق سمعك للنصائح الآتية :

1- استمسك بما أنت عليه من الحق المبين من أنـوار الوحـيين الشـريفين وسُــلوك جـادة السـلف الصـالحين ، ولا يحركك تهيج المرجفين ، وتباين أقـوالهم فيك عن موقعك فتضل .

وخذ هـــذه الشـــذرة عن الحافظ ابن عبدالبر - رحمه الله تعـالى[71] - : ((قـال أبو عمر : الـــذين رووا عن أبي حنيفة ، ووثقــوه ، وأثنــوا عليه أكــثر من الــذين تكلموا فيه .

والــذين تكلمــوا فيه من أهل الحــديث ، أكثر ما عابوا عليه الإغـراق في الـرأي ، والقياس ، والإرجاء .

وكـان يقـال : يسـتدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه .

---

[71] " جامع بيان العلم وفضله " : (2/ 439) .

قالوا : ألا ترى إلى علي بن أبي طـالب ، أنه هلك فيه فتيـــان : مُحب أفـــرط ، ومبغض أفرط ، وقد جـاء في الحـديث : أنه يهلك فيه رجلان : محب مُطـــــــرٍ ، ومبغض مُفترٍ .
وهــذه صــفة أهل النباهة ، ومن بلغ في الـــــــدين والفضل الغاية والله أعلم)) انتهى .
2- لا تبـتئس بما يقولـون ، ولا تحـزن بما يفعلـون ، وخذ بوصـية الله سـبحانه لعبـــده ونبيه نـــوح - عليه الســـلام - ((وأوحي إلى نـــوح أنه لن يـــؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبـــــتئس بما كانوا يفعلون)) [هود : 36] .
ومن بعد أوصى بها يوسف - عليه السلام - أخاه : ((قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون))[يوسف: 69].
3- ولا يثنك هـــذا " الإرجـــــاف " عن موقفك الحق ، وأنت داع إلى الله على بصــيرة فالثبــات الثبــات متــوكلاً على مـولاك - والله يتـولى الصـالحين - قـال تعـالى : ((فلعلك تـارك بعض مـايوحى إليك وضـائق به صـدرك أن يقولـوا لـولا

أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل)) [هــود : 12] .

4- ليكن في ســيرتك وســريرتك من النقاء ، والصفاء ، والشـفقة على الخلق ، ما يحملك على اســتيعاب الآخــرين ، وكظم الغيظ ، والإعراض عن عرض من وقع فيك ، ولا تشــغل نفسك بـــذكره ، واستعمل : " العزلة الشعورية " .
فهـــذا غاية في نبل النفس ، وصـــفاء المعدن ، وخلق المسلم .
وأنت بهذا كأنما تُسف الظالم المل .
والأمـــــور مرهونة بحقائقها ، أما الزبد فيذهب جُـفاء .

إلـى كــل مـســــلم

إلَى كُلِّ مُسْلمٍ

إلى كُل مسلم . إلى كُل من احترف التصنيف فتاب . إلى من رُمي بالتصنيف فصبر . إلى كُل عبد مسلم شحيح بدينه ، يخشى الله ، والـــدار الآخـــرة . إلى هؤلاء جميعاً مسلمين ، قانتين ، بــاحثين عن الحق على منهــاج النبــوة ، وأنــوار الرسـالة - أسـوق التـذكير والنصـيحة - علماً وعملاً - بالأصول الآتية :

1- الأصل الشرعي : تحــريم النيل من عرض المسلم .

وهـذا أمر معلـوم من الـدين بالضـرورة في إطـار الضــروريات الخمس الــتي

جـــاءت من أجلها الشـــرائع ، ومنها : " حفظُ العرض " .
فيجب على كل مســـلم قـــدر الله حق قـدره ، وعظم دينه وشـرعه ، أن تعظم في نفسه حرمة المســـــلم : في دينه . ودمه . وماله . ونسبه . وعرضه .
2- والأصل بنــاء حــال المســلم على السـلامة ، والسـتر ، لأن اليقين لا يزيله الشك ، وإنما يُزالُ بيقين مثله .
فاحـذر - رحمك الله - ظـاهرة التصـنيف هذه ، واحـــذر

الاتهامـات الباطلة ، واستسـهال الـرمي بها هنا وهناك ، وانفض يــدك منها ، يخل لك وجه الحق ، وأنت به قرير العين ، رضي النفس .
3- لا يُخـــرجُ عن هـــذين الأصـــلين إلا بـــدليل مثل الشـمس في رائعة النهــار على مثلها فاشهد أو دع . فالتزام واجب "التـــبين " للأخبـــار ، والتثبت منها ، إذ الأصل البراءة .
وكم من خبر لا يصح أصلاً .

وكم من خبر صحيح لكن حصل عليه من الإضـافات مـالا يصح أصـلاً ، أو حـرف ، وغير ، وبدل . وهكذا .
وبالجملة فلا تُقـرر المؤاخـذة إلا بعد أن تـأذن لك الحُجة ، ويقـوم عنـدك قـائم البرهان كقائم الظهيرة .
وقد أمرنا الله تعـالى بـالتبيُن فقـال سبحانه :
(يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسـقٌ بنبـأٍ فتـبينوا أن تصـيبوا قومـاً بجهالـةٍ فتصـبحوا على مـافعلتم نـادمين) [الحجرات :6] .
وقال تعالى :
(وإذا جـآءهُم أمـرٌ من الأمن أو الخـوف أذاعـوا به ولو ردوه إلى الرسـول وإلى أولي الأمر منهم لعلمـهُ الـذين يسـتنبطونه منهم ولـولا فضـلُ الله عليكم ورحمتهُ لأتبعتُمُ الشيطـان إلا قليلاً)[النساء: 83] .
قال السيوطي - رحمه الله تعالى - :
(نزلت الآية في جماعة من المنافقين ، أو في ضـعفاء المؤمـنين كـانوا يفعلـون ذلك فتضعف قلوب المؤمـنين ، ويتـأذى النبيُ - ﷺ-)[81] .

4- من تجاوزهما بغــير حق مُــتيقن فهو خــارقٌ حُرمة الشــرع بالنيل ظلمــاً من "عرض أخيه المســلم " وهـذا " مفتـون " .

5- يجب أن يكون المسلم على جـانب كريم من سُمُو الخلق وعلو الهمة ، وأن لا يكــون معــبراً تمــررُ عليه الــواردات والمُختـلقات .

6 - يوجد أفــراد شُــغلهم الشــاغل : " تطيير الأخبـار كُل مطـار " يتلقى لسـان عن لسان بلا تثبت ولا روية ، ثم ينشــره بفمه ولســانه بلا وعي ولا تعقل ، فـتراه يقـذف بـالكلام ، ويطـير به هنا وهنـاك ، فاحـــذر طـــريقتهم ، وادفع في وجهها ، واعمل على استصلاح حالهم .

ومن وقع في حبالهم فعليه سل يده من رابطتهم هذه .

7 - الـتزم " الإنصـاف الأدبي " بـأن لا تجحد ما للإنسان من

فضل ، وإذا أذنب فلا تفـــرح بذنبه ، ولا تتخذ الوقـــائع العارضة منهية لحـــال

[81] وانظر في سبيل النزول : " صحيح مســلم "، و " تفسير الطبري " .

الشـــخص ، واتخاذها رصـــيداً يُنفق منه الجراح في الثلب ، والطعن . وأن تـدعو له بالهداية ، أما التزيد عليه ، وأما البحث عن هفواته ، وتصـيدها ، فـذنوب مضافة أخرى .

والرسوخ في الإنصـاف بحاجة إلى قـدر كبير من خلق رفيع ، ودين متين .

وعليه فاحذر قلة الإنصاف :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة
بين الرجال وإن
كانوا ذوي رحم

8 - احذر " الفتانين " دعاة " الفتنة " الذين يتصيدون العثرات وسيماهُم :

جعل الـــدعاة تحت مطـــارق النقد ، وقـوارع التصـنيف ، مـوظفين لـذلك : الحـــرص على تصـــيد الخطأ ، وحمل المحتملات على المؤاخــذات ، والفــرح بالزلات والعثرات ، ليمسكوا بها بالحسد والثلب ، واتخاذها ديدناً .

وهـذا من أعظم التجـني على أعـراض المسـلمين عامة ، وعلى الـدعاة منهم خاصة .

وسيماهم أيضـاً : توظيف النصـوص في غير مجالها ، وإخراجها في غير براقعها ، لتكثــير الجمع ، والبحث عن الأنصــار ، وتغرير الناس بذلك .
فــإذا رأيت هــذا القطيع فكــبر عليهم ، وولهم ظهـــرك ، وإن اســـتطعت صد هجومهم وصيالهم فهو من دفع الصائل .
9 - اعلم أن " تصنيف العالم الداعية " - وهو من أهل الســـنة - ورميــــةُ بالنقـائص : نـاقض من نـواقض الـدعوة وإســهام في تقــويض الــدعوة ، ونكث الثقة ، وصرف الناس عن الخير ، وبقدر هذا الصد ، ينفتح السبيل للزائغين .
فاحذر الوقوع في ذلك .
وقد عقدتُ في هـذا مبحثـاً من كتـاب " التعالم " أ سوقه هنا للحاجة إليه[91] :
(أســند البخـاري في : كتـاب الشـروط من صـــحيحه: قصة الحديبية ومســـير النــبي - صــلى الله عليه وســلم - إليها وفيها[02]:

---

[91] (ص / 79 – 87) .
[02] " فتح الباري " : (5 / 335 – 336) .

وسار النبي - ﷺ- حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل، فألحت

فقالوا :
خلأت القصواء ، فقال النبي - ﷺ- : ((ماخلأت القصواء وماذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل)) .
الحديث
قال الحافظ ابن حجر في فقه هذا الحديث :
(جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته ، وإن جاز أن يطرأ غيره ، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها ، لا ينسب إليها ، ويُرد على من نسبه إليها ، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله ، لأن خلأ القصواء لولا خارق العادة لكان ما ظنه الصحابة : صحيحاً ، ولم يعاتبهم النبي - ﷺ- على ذلك لعذرهم في ظنهم) اهـ .
فقد أعذر النبي - ﷺ- غير المكلف من الدواب باستصحاب الأصل ، ومن قياس الأولى إذا رأينا عالماً عاملاً

، ثم وقعت منه هنة أو هفوة ، فهو أولى بالإعـــذار ، وعـــدم نســـبته إليها والتشنيع عليه بها - استصحاباً للأصل ، وغمر مابدر منه في بحر علمه وفضله ، وإلا كـــان المعنف قاطعـــاً للطريق ، ردءاً للنفس اللوامة ، وسبباً في حرمان العـــالم من علمه ، وقد نُهينا أن يكـــون أحـــدنا عونـــاً للشـــيطان على أخيه . فما ألطف هذا الاستدلال وأدق هذا المنزع ، ورحم الله الحافظ الكنـــــاني ابن حجر العسقلاني ، على شفوف نظـــره ، وفقه نفسه ، وتعليقه الحكم بمدركه .

قال الصنعاني - رحمه الله تعالى[12] - :

(وليس أحد من أفـــراد العلمـــاء إلا وله نـــادرة ينبغي أن تغمر في جنب فضـــله وتجتنب) اهـ .

وقال أبوهلال العسكري [22] :

(ولا يضع من العـــالم الـــذي بـــرع في علمه : زلةٌ ، إن كـــانت على ســـبيل السهو والإغفال ، فإنه لم يعر من الخطأ إلا من عصم الله جل ذكره . وقد قـــالت

---

[12] سـبل السـلام : الجـزء الأول، نقله عنه أبو مـدين الشنقيطي في " الصوارم والأسنة " : (ص / 12) .

[22] شرح ما يقع فيه التصحيف (ص/ 6) .

الحكماء : الفاضل من عُدت سقطاته ، وليتنا أدركنا بعض صـوابهم أو كنا ممن يميز خطأهم) اهـ .
وقد تتـابعت كلمة العلمـاء في الاعتـذار عن الأئمة فيما بــدر منهم ، وأن ما يبدو من العالم من هنات لا تكون مانعـة

للاستفادة من علمه وفضله .
فهذا الحافظ الذهبي - رحمه الله تعـالى - يقــول في ترجمة كبــير المفســرين قتــادة بن دعامة السدوسي المتــوفى سـنة 117 هــ رحمه الله تعـالى بعد أن اعتذر عنه[32] :
(ثم إن الكبــير من أئمة العلم إذا كــثر صــــوابه ، وعلم تحريه للحق ، واتسع علمه ، وظهر ذكـاؤه ، وعــرف صـلاحه وورعه واتباعه يغفر له زللة ، ولا نضـلله ونطرحه وننسى محاســـــنه ، نعم : لانقتــدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك) اهـ .

---

[32] " السيرة " : (5 / 271) .

وقـال أيضـاً في دفع العتـاب عن الإمـام محمد بن نصر المـــــروزي - رحمه الله تعالى [42]- :
(ولو أنا كلما أخطأ إمــام في اجتهــاده في آحـــاد المســائل خطأً مغفــوراً له ، قمنا عليه ، وبـدعناه وهجرنـاه لما سـلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منـــده ، ولا من هو أكــبر منهما ، والله هو هــادي الخلق إلى الحق ، وهو أرحم الراحمين ، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة) اهـ .

وقال في ترجمة إمـام الأئمة ابن خزيمة المتــوفى ســنة 311 هـــ - رحمه الله تعالى [52]:
(وكتابه : في التوحيد . مجلد كبـــير . وقد تأول في ذلك حديث الصورة .
فليعـذر من تـأول بعض الصـفات ، وأما الســـلف فما خاضـــوا في التأويل ، بل آمنوا وكفوا ، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورســــــوله ، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صـحة إيمانه وتوخيه لاتبـاع الحق - أهدرناه وبدعناه ، لقل من يسلم

---

[42] " السيرة " : (14 / 40) .
[52] " السيرة " : (14 / 374) .

من الأئمة معنا . رحم الله الجميع بمنه وكرمه) اهـ .
وقال في ترجمة : باني مدينة الزهراء بالأندلس : الملك الملقب بأمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس المتوفى سنة 350هـ [62]:
(وإذا كان الرأس عالي الهمة في الجهاد ، احتملت له هنات ، وحسابه على الله ، أما إذا أمات الجهاد ، وظلم العباد ، وللخزائن أباد ، فإن ربك لبالمرصاد) اهـ .
وقال في ترجمة : القفال الشاشي الشافعي المتوفى سنة

365 هـ - رحمه الله تعالى[72] - :
(قال أبو الحسن الصفار : سمعت أبا سهل الصعلوكي ، وسُئل عن تفسير أبي بكر القفال ، فقال : قدسه من وجه ودنسه من وجه ، أي : دنسه من جهة نصره للاعتزال .

---

[62] " السيرة " : (15 / 564) .
[72] " السيرة " : (16 / 285) .

قلت : قد مر موته ، والكمـــــال عزيز ، وإنما يمـــدح العـــالم بكـــثرة ماله من الفضائل ، فلا تـدفن المحاسن لورطـةٍ ، ولعله رجع عنها . وقد يغفر له في اســــــــتفراغه الوسع في طلب الحق ولاحول ولا قوة إلا بالله) اهـ .

وبعد أن ذكر بعض الهفــوات لأبي حامد الغزالي المتوفى سـنة 505 هــ - رحمه الله تعالى- قال[82] :

(قلت : الغــزالي إمــام كبــير ، وما من شــرط العــالم أنه لا يخطئ) اهـ .

وقال أيضاً [92]:

(قلت : مــازال الأئمة يخــالف بعضــهم بعضاً ، ويرد هذا على هذا ، ولسـنا ممن يذم العالم بالهوى والجهل) اهـ .

وقال ايضاً [03]:

---

[82] " السيرة " : (19 / 339) .

[92] " السيرة " : (19 / 342) .

[03] " السيرة " : (19 / 346) .

(فرحم الله الإمام أبا حامد ، فأين مثله في علومه وفضـــــائله ولكن لانــــــدعي عصمته من الغلط والخطأ . ولاتقليد في الأصول) اهـ .

ونبه على على حال مجاهد فقال[13] :

(قلت : ولمجاهد أ قــوال وغــرائب في العلم والتفسير تُستنكر) اهـ .

وقال في ترجمة ابن عبد الحكم [23]:

(قلت : له تصــانيف كثــيرة ، منها : كتــاب في الــرد على الشــافعي . وكتــاب أحكــام القــرآن . وكتــاب الــرد على فقهــاء العــراق . ومــازال العلمــاء قديماً وحديثاً يرد بعضهم على بعض في البحث وفي التواليف ، وبمثل ذلك يتفقه العالم ، وتتــبرهن له المشــكلات ، ولكن في زمننا قد يعــاقب الفقيه إذا اعتــنى بــذلك لســوء نيته ، ولطلبه للظهــور والتكــثر ، فيقــوم عليه قضــاة وأضداد ، نسأل الله حســــــن

---

13 " السيرة " : (4 / 455) .

23 " السيرة " : (12/ 500 – 501) .

الخاتمة وإخلاص العمل) اهـ .
وفي ترجمة إسماعيل الـتيمي المتـوفى سنة 535 هـ أنه قال[33] : (اخطأ ابن خزيمة في حـديث الصـورة ، ولا يطعن عليه بذلك بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب . قال أبو موسى - المديني - : أشار بهـذا إلى أنه قل إمام إلا وله زلة ، فـإذا تـرك لأجل زلته ، ترك كثـير من الأئمة ، وهـذا لا ينبغي أن يفعل) اهـ .
فهذا الذهبي نفسه[43] قد تكلم رحمه الله تعالى - في أن علـوم أهل الجنة تسـلب عنهم في الجنة ولا يبقى لهم شـــــعور بشئ منها . وقد تعقبه العلامة الشـوكاني في فتـاواه المسـماة : الفتح الرباني . وذكر إجماع أهل الإسـلام على أن عقول أهل الجنة تزداد صفاءً وإدراكاً - لــذهاب ماكــان يعــتريهم في الــدنيا . وســاق النصــوص في ذلك . منها قوله تعـالى ((يليت قـومي يعلمـون بما غفر لي ربي وجعلني من المُكرمين)) .

---

[33] " السيرة " : (20 / 88) .
[43] " أبجد العلوم " لصديق خان رحمه الله تعالى : (1 / 15 - 20) .

وقـال شـيخه شـيخ الإسـلام ابن تيمية النميري – رحـمه الله

تعـالى - ، في جـواب له بإبطـال فتـوى قضـــــاة مصر بحبسه وعقوبته من أجل فتواه بشأن شد الرحل إلى القبور[53] :
(إنه لو قدر أن العالم الكثير الفتاوى ، أفــتى في عــدة مســائل بخلاف ســنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه ، وخلاف ما عليه الخلفاء الراشدون : لم يجز منعه من الفتيا مطلقـــــاً ، بل يبين له خطؤه فيما خالف فيه ، فمـازال في كل عصر من أعصــــار الصـــــحابة والتــابعين ، ومن بعـــدهم من علمـــاء المسلمين من هو كذلك ......) اهـ .
وهذا الإمام الحافظ ابن حبـان المتـوفى سنة 354 هـ رحمه الله تعالى فاه بقوله : النبـــــوة العلم والعمل . فهُجر وحُكم عليه بالزندقة وكتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله .

---

[53] " مجموع الفتاوى " : (27 / 311) .

لكن أنصــفه المحققــون من أهل العلم فوجهـــــوا قوله واســــــتفادوا من علمه وفضله منهم : ابن القيم[63] ، والذهبي [73]، وابن حجر[83] في سواهم من المحققين .

ومما قاله الذهبي :
(قلت : وهــذا أيضــاً له محمل حسن ، ولم يرد حصر المبتدأ في الخــبر . ومثله : الحج عرفة ، فمعلــــــوم أن الرجل لا يصير حاجاً بمجرد الوقـوف بعرفة ، إنما ذكر مهم الحج ، ومهم النبــوة ، إذ أكمل صفات النبي : العلم والعمل ، ولا يكـون أحد نبياً إلا أن يكون عالمـاً عـاملاً . نعم النبـــــوة موهبة من الله تعـــــالى لمن اصـطفاه من أولي العلم والعمل لا حيلة للبشر في اكتســـابها أبـــداً ، وبها يتولد العلم النافع والعمل الصالح .

[63] " مفتاح دار السعادة " .
[73] " تذكرة الحفاظ " : (3 / 922) .
[83] (لسان الميزان) : (5 / 113 – 116) .

ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن ابي حاتم : لا يسوغ ، وذلك نفسٌ فلسفي) اهـ .
وهذا العلامة أبو الوليد البـاجي المـالكي المتوفى سنة 474 هـ رحمه الله تعالى افـترع القـول بارتفـاع أمية النـبي - ﷺ- لقصة الحديبية فقـام عليه أهل عصـره حتى حكموا بكفره .
وقال بعضهم فيه :

عجبت ممن شرى دنياً بآخرة
وقال إن رسول الله قد كتبا

ثم تطـامنت الفتنة وأوضح المحققـون بأن واقعة الحديبيـة لا

سـبيل إلى إنكارها لثبوتها لكنها لا تنفي الأمية ، كما أن النـبي - ﷺ- بُعث في العـــــرب وهم أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ومع هـــذا يوجد فيهم من يكتب مثل كتـاب الـوحي - لكنهم على نـــدرة ولم ينف هـــذا أمية أمته - ﷺ- من العــرب . حقق ذلك الحافظ الـذهبي رحمه الله تعـالى في ترجمة الباجي من السير [93].

---

[93] " السيرة " : (18 / 540) .

ولعصــــرينا ابن حجر القاضي القطـــري كتـــاب حافل باسم : الـــرد الشافي الـوافر على من نفى أمية سـيد الأوائل والأواخر .

وهـــذا عبد الملك بن حـــبيب رحمه الله تعـــــالى من أعلام الفقه المــالكي . عيب عليه أشـــياء ولم يُهجر رحمه الله تعالى [04].

والجيــــاني : أحمد بن محمد بن فـــــرج اللغـــــوي الشـــــاعر ، لحقته محنة لكلمة عامية نطق بها ، نقلوها عنه ، وكـان سـجنه بسـببها في زمن : الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتـوفى سنة 336 هـ [14].

---

[04] " لسان الميزان " : (4 / 64) .

[14] " الصلة " لابن بشكوال : (1 / 5) .

وانظر : ترجمة أبي حيـان التوحيـدي ففيها مع فسـاد معتقد ، أشـــياء من هـــذا كما في : " لســـان الميزان " : (7 / 38 – 41) . ونحوها لأبي طالب المكي صاحب " قوت القلـوب " كما في : " الميزان " : (3 / 655) ، و " لسان " : (5 / 300) .

وهؤلاء الأئمة : ابن الأثير ، وابن خلـدون ، والمقريـــزي قد صـــححوا النسب الفاطمي للعبيـديين . وقد صـاح المحققون على القائلين بهذا منهم : ابن تيمية ، وابن القيم ، والـــذهبي ، وابن حجر وغيرهم في القديم والحـديث .

والمـؤرخ ابن خلـدون أيضـاً عقب عليه الهيتمي بأنه لما ذكر الحسـين بن علي - رضي الله عنه - في تاريخه قال[24] :

(قتل بسيف جده) .

لكن دافع الحافظ ابن حجر عن ابن خلـــدون بـــأن هـــذه الكلمة لم توجد في التـــاريخ الموجـــود الآن ولعله ذكرها في النســـخة الـــتي رجع عنها .

وقد تتابع الغلط على ابن خلـدون أيضـاً في أنه يحط على العرب من أنهم أهل ضعن ووبر لا يصـلحون لـملك ولا

---

[24] " الضـوء اللامع " : (3 / 147) ، " الإعلان بالتوبيخ " : (ص / 71) .

سياسة .... وابن خلدون كلامه هـذا في " الأعـــراب " لا في " العـــرب " فليعلم .
فهذه الآراء المغلوطة لم تكن سـبباً في الحرمـان من علـوم هـؤلاء الأجلة بل مازالت منارات يهتدي بها في أيدي أهل الإسـلام . وما زال العلمـاء على هـذا المشـرع ينبهـون على خطأ الأئمة مع الاسـتفادة من علمهم وفضـلهم ، ولو سـلكوا مسـلك الهجر لهـدمت أصـول وأركان ، ولتقلص ظل العلم في الإسلام ، وأصبح الاختلال واضـحاً للعيـان . والله المستعان .
وكان الشيخ طـاهر الجزائـري المتـوفى سنة 1338 هـ رحمه الله تعـالى يقـول وهو على فراش الموت [34] :
(عـدوا رجـالكم ، واغفـروا لهم بعض زلاتهم ، وعضوا عليهم بالنواجذ لتستفيد الأمة منهم ، ولا تُنفـروهم ، لئلا يزهـدوا في خدمتكم) اهـ .

---

[34] " كنوز الأجداد " .

وينتظم ما سلف تحقيق بالغ للإمــام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ذكــره في مباحث الحيل من " إعلام الموقعين " (3/ 294-298) فانظره .

وإنما أتيت على النقـــــول المتقدمة مع كثرتهــا، لعمــوم البلــوى على أهل العلم من بعض الجهــــال ... إذا حصل له رأي عن قناعة ودراية في مســـــــألة فقهية فروعية - يكـــادون يُزهقونه ويجهـــزون عليه لتبقى الريـــادة الوهمية لهم ، والله المستعان على ما يفعلون .
أما المبتدعة فلا والله ، فإنا نخـــــــافهم ونحذرهم ، ولواجب البيـان نُحـذرُهُم من بدعهم ، فاحذر مخالطهم ، والتلقي عنهم ، فــإن ذلك سم نــاقع " انتهى من كتاب : "التعالم " .
10- قد تــرى الرجل العظيم يشــار إليه بالعلم والدين، وقفز القنطرة في أبواب التوحيد على أصـــول الإســـلام والســـنة وجــــادة ســــلف الأمة ، ثم يحصل منه هفـــوة ، أو هفـــوات، أو زلـــة، أو زلات .

فلتعلم هنا : أنه ماكل عـــــالم ولا داعية كـذلك يؤخذ بهفوته ، ولا يُتبع بزلته ، فلو عُمل ذلك لما بقي معنا داعية قط ، وكُلٌ رادٌ ومردُودٌ عليه ، والعصمة لأنبياء الله ورسله .
نعم : يُنبه على خطئه ، ولا يُجـــــرم به ، فيُحـــرمُ النـــاسُ من علمه ودعوته ، وما يحصل على يديه من الخير .
ومن جــرم المخطئ في خطئه الصــادر عن اجتهاد له فيه مسرحٌ

شرعاً ، فهو صـاحب هـوى يحمل التبعة مرتين :
تبعة التجريم ، وتبعة حرمـان النـاس من علمه ، بل عليه عدة تبعات معلومة لمن تأملها .
11 - قد تــرى الرجل العظيم ، يشـــار إليه بـــالعلم والـــدين ، وقد ينضـــاف إلى ذلك نزاله في ساحات الجهـاد ، وشُـهود سنابك الجياد ، وبارقة السيوف ، ويكون له بجـانب ذلك هنـات وهنـات في توحيد العبـادة ، أو توحيد الأسـماء والصـفات ، ومع هـذا فـترى نظـراءه من أهل العلم

والإيمان ممن سـلم من هـذه الهنـات ، يشهدون بفضله ويقرون
بعلمـه، ويـدينون لفقهه ، وعلو كعبـه، فيعتمـدون كتبه وأقوالـه، ولا يصـرفهم هذا عن هذا : " وإذا بلغ المـاء قُلـتين لم يحمل الخبث " .
ولا تمنعه الاسـتفادة منه من البيـان بلطف عما حصل له من عـثرات ، بل يبينونها ويسـألون الله أن يُقيل عثرته ، وأن يغفرها بجانب فضله وفضيلته .
وخذ شـاهداً في حـال المعاصـرة : إن شداة اعتقاد السلف - كثر الله جمعهم - يكُـدُون ليلهم ، ونهـارهم ، ويبـذلون وُكـدهم في تحضـير الرسـائل الجامعية لعدد من وجوه أهل العلم في دراسة حيـاتهم ، وسـيرهم ، وجمع شمائلهم ، وتحقيق كتبهم ، ونشـرها بين الناس، ويرون هذا قربة بعلمٍ يُنتـفع به.
وتتسـابق كلمة علمـاء العصر بالمـدح والثناء .
وبهـذا تعلم أن تلك البـادرة " الملعونة " من تكفير الأئمة :
النـووي ، وابن دقيق العيد ، وابن حجر العسـقلاني - رحمهم الله تعـالى - أو

الحط من أقـــــدارهم ، أو أنهم مبتدعة ضــلال . كل هــذا من عمل الشــيطان ، وباب ضلالة وإضلال ، وفســاد وإفســاد ، وإذا جُرح شهود الشـرع جُـرح المشـهود به ، لكن الأغرار لا يفقهون ولا يتثبتـون ، فهل من مُنفذٍ في الواقعين نصيحة زيـاد فيما ســاقه ابن عبد الـــبر - رحمه الله

تعــالى - بســنده أن زيــاداً خطب على منبر الكوفة فقال :
" أيها الناس إني بُتُ ليلـتي هـذه مُهتمـاً بخلال ثلاث رأيت أن أتقــدم إليكم فيهن بالنصيحة :
رأيت إعظــــام ذوي الشــــرف ، وإجلال ذوي العلم ، وتوقير ذوي الأسنان .

والله لا أوتى برجل رد على ذي علم ليضع بذلك منــه إلا

عاقبته .... إلى أن قال :
إنما الناس بأعلامهم ، وعلمائهم ، وذوي أسنانهم " [44].

[44] " جامع بيان العلم " : (1 / 64) .

الفهرس

12 - وإن سـألت عن الموقف الشـرعي من انشـقاق هـؤلاء بظـاهرة التجريح ، فأقول :

أ - احذر هـذا الانشـقاق لا تقع في مثله مع " المنشـقين الجـراحين " المبـذرين للوقت والجهد والنشاط في قيل وقـال ، وكثرة السؤال عن " تصـنيف العبـاد "،

وذلك فيما انشقوا فيه، فهو ذنب تلبسوا به ، وبلـــــوى وقعـــــوا فيها ، وادع لهم بالعافية.
ب - إذا بُليت بالـــــــذين يــــــأتون في مجالسهم هـذا المنكر " تصـنيف النـاس بغير حق " واللهث وراءه ، فبـادر بإنفـاذ أمر الله في مثل من قال الله فيهم :
((وإذا رأيت الــذين يخوضــون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضـوا في حـديثٍ غــيره وإما ينســينك الشــيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)) [الأنعام : 68] .

وفي هــذا القــدر كفاية – إن شـــاء الله تعالى - وفيما كتبت في : " حلية طـالب العلم " ، و " التعـــــــــالم " ، و " هجر المبتدع " " وحكم الانتمـاء " ، و " الـرد على المخالف " أصول نافعة .

والله تعالى أعلم .

انتهـــــى .

بكـــــر بن عبد الله أبو زيـــــــــد

8 / 3 / 1413 هـ

الحاشية